

قسم البلاغة والنقد الأدبي
والأدب المقارن

تَدْرِيبَاتٌ بلاغية

إعداد

نخبة من أعضاء هيئة التدريس بالقسم

القاهرة
١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م


بسم الله الرحمن الرحيم

توصيف المقرر

١- بيانات المقرر		
الرمز الكودي : ٤٠٤٢	**اسم المقرر :التدريبات البلاغية.**	**الفرقة : الرابعة (ممتدة)**
التخصص : البلاغة والنقد الأدبي والأدب المقارن.	**عدد الوحدات الدراسية نظري** _ **تدريبات** 2	
٢- هدف المقرر :	**تدريب الطالب على قراءة وتحليل نماذج من نصوص الأدب العربي في ضوء ما درسه من نظريات بلاغية ونقدية.**	
٣- المستهدف من تدريس المقرر: بنهاية هذا المقرر يكون الطالب قادرا على أن :		
أ- المعلومات والمفاهيم :	**أ – ١) يتعرف على أصول التحليل الأدبي والنقدي للنص العربي.** **أ – ٢) يفسر النصوص تفسيرا بلاغيا.**	
ب- المهارات الذهنية :	**ب – ١) يحلل النص العربي تحليلا بلاغيا ونقديا.** **ب – ٢) يستنتج السمات المميزة لكل من لنصوص موضوع الدرسة**	
جـ- المهارات المهنية :	**ج – ١) يلقى النص إلقاء صحيحا.** **ج – ٢) يقرأ النصوص القديمة والحديثة قراءة ناقدة** **ج – ٣) يبحث فى كتب التراجم عن سير الشعراء والكتاب.** **ج – ٤) يستخدم المصادر الأدبية** **ج-٥) يكتب دراسة نقدية عن النصوص موضوع الدراسة**	
د- المهارات العامة :	**د- ١) يشارك في العمل الجماعي.** **د – ٢) يتواصل مع الآخرين محترما الرأى الآخر** **د- ٣) يستخدم تكنولوجيا المعلومات في التفاعل تعليما وتعلما.**	
٤- محتوى المقرر:		

الموضوع	الأسابيع
نصوص شعرية من العصر الجاهلي.	الأسبوع الأول و الثاني.
نصوص شعرية من العصر الإسلامي.	الأسبوع الثالث
نصوص شعرية من العصر	الأسبوع الرابع. والخامس

	الأموي والعباسي.	والسادس
	نصوص شعرية من العصر الأندلسي.	الأسبوع السابع والثامن
	نصوص شعرية من العصر الحديث.	الأسبوع التاسع والعاشر
	نصوص نثرية من أمثال وأقوال العرب.	الأسبوع الحادي عشروالثانى عشر
	نصوص من المقامات.	الأسبوع الثالث عشر والرابع عشر
	نصوص من المقالات الأدبية الحديثة.	الأسبوع الخامس عشر : السابع عشر.
	نصوص من القصة القصيرة.	الأسبوع الثامن عشر : العشرين
	نصوص من المسرحية.	الأسبوع الحادى والعشرون : الأسبوع الرابع والعشرون
	مراجعة وامتحان	الخامس والعشرون والسادس والعشرون

٥- أساليب التعليم والتعلم	- المحاضرة - العصف الذهني. - السبورة التفاعلية وملحقاتها. - التعلم الذاتي - المناقشة والحوار
٦- أساليب التعليم والتعلم للطلاب ذوي القدرات المحدودة	- المكتبة الصوتية.
٧- تقويم الطـلاب :	
أ-الأساليب المستخدمة	- الامتحان التحريري. - الامتحان الشفوي. - أعمال السنة.

ب-التوقيت	آخر الفصل الدراسي الأول والثاني.
جـ- توزيع الدرجات	٥٠٪ الامتحان الشفوي ٥٠٪ أعمال سنة تحريرية وشفوية
٨- قائمة الكتب الدراسية والمراجع :	
أ- مذكرات	لا يوجد.
ب- كتب ملزمة	التدريبات البلاغية. إعداد نخبة من أعضاء هيئة التدريس بالقسم. مركز جامعة القاهرة للطباعة والنشر، ٢٠١٦.
جـ- كتب مقترحة	- كتاب البلاغة الواضحة. البلاغة الواضحة : علي الجارم ومصطفى أمين. مكتبة البشرى، كراتشي، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م. - كتاب البلاغة في العصر الحديث.
د- دوريات علمية أو نشرات ... إلخ	مجلة فصول، مجلة النقد الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة. - موقع الألوكة. http://majles.alukah.net/forum5

بين يدي النصوص

هذه مجموعة من النصوص المختارة من الأدب العربي في عصوره المختلفة وأخباره المتنوعة. يتصدرها حوار حول نص قرآني كريم من سورة العلق، يمثِّل أشهر نص دعا إلى القراءة في تاريخ البشرية، وينطلق التحليل إلى تطبيق بعض آفاق القراءة الممكنة لنص يبدو كالماسة الثمينة، كلما قلبت جانبًا من جوانبها، اكتشفت نمطًا جديدًا من الإشعاع المتألق.

ثم تتابعت بعد النص القرآني، نصوص الأدب العربي شعرًا ونثرًا متدرجة حسب العصور الأدبية بدءًا من أقربها وأكثرها ألفة ومعايشة للغة القارئ المعاصر، ووصولاً إلى أبعدها في عصر ما قبل الإسلام.

وقد حرصنا على أن تكون النصوص المختارة سهلة ميسورة الإدراك – مشوّقة، تحمل جوانب من متعة التذوُّق الأدبي إلى جانب الفائدة المرجوَّة.

وحرصنا على أن ترتبط النصوص بالجانب الوجداني والشعوري والأخلاقي، لكي تشارك في تكوين طالب المعرفة في هذه المرحلة الحساسة من عمره.

ولابد أن نشير للطلاب الدارسين، وللزملاء والأبناء من أعضاء هيئة التدريس ومعاونيهم الذين سوف يتولون الحوار مع الطلاب حول هذه النصوص، إلى أن الهدف الذي نتفق عليه جميعًا من خلال طرح هذه النصوص وتدريسها، هو تقوية الملكات الرئيسية للقارئ المتخصص في اللغة العربية وآدابها، وهي ملكات:

١ – القراءة نطقًا.

٢ – التلقي استيعابًا (من خلال السماع أو القراءة الصامتة).

٣ – التعبير الشفاهي الصحيح (من خلال إعادة عرض ما سمع أو ما قرأ).

٤ – الكتابة الصحيحة (من خلال تلخيص المقال أو إعادة صياغته، أو التعليق عليه).

وفي سبيل تحقيق هذا الهدف، ينبغي أن يكون الجهد المبذول تطبيقيًّا وحواريًّا، وأن تكون مشاركة الطلاب فيه هي الغالبة. بحيث يتوقع أن تشغل ثلثي وقت المحاضرة على الأقل، وأن تدور بالتساوي على مجمل الطلاب، وأن يكون ثلث المحاضرة الباقي على الأكثر، موجهًا لتقديم سريع للنص، وتعليق وتصويب لأخطاء القراءة أو التلخيص أو الكتابة، وأن تكون من ثَمَّ موزعة على جهد الطلاب الجزئي في كل محاضرة، لا على تقييمهم الإجمالي طوال الفصل فقط، بحيث يستطيع الطالب في نهاية كل شهر أن يعرف متوسط الدرجة التي حصل عليها في كل مهارة من المهارات الأربع المطلوب إنجازها (القراءة – الاستيعاب – التعبير الشفهي – الكتابة) وأن تكون درجته في المادة في نهاية الفصل حصادًا متوقعًا لدرجاته الشهرية، ولكي يتم تحقيق أكبر جانب من هذه الأهداف المتوخاة فإنه ينبغي بالتالي التخفف – ما أمكن – من نظام المحاضرة التي تتطلب الحديث والاستفاضة والشرح من جانب واحد، هو جانب المحاضرة، والإصغاء والاستيعاب من جانب الطلاب، وأن يحل بدلاً من هذا النظام نظام «المناقشة والحوار» حتى لو اكتشفنا في البداية، تواضع المستوى العلمي لبعض الطلاب. ويتطلب تطبيق النظام من ناحية ثانية، التوقف عن التوسُّع التخصصي في القضايا المثارة، فذلك مجال المحاضرات والمراجع، لا جلسات المناقشة التطبيقية.

إننا نحرص على إيقاظ ملكات الطالب والطالبة، وهي والحمد لله موجودة، وإن كان بعضها في غفوة يحتاج إلى إيقاظ وتنشيط، وسوف يكون من شأن إيقاظها أن تستكمل هي مشوار التحصيل العلمي، وأن تشعر بلذة التوفيق – حتى ولو كانت جزئية – في إجادة قراءة نص، أو الوصول إلى استيعابه وتلخيصه، أو إعادة عرضه شفويًّا بطريقة صحيحة، أو كتابة ملخص له، مساعدة للطالب على التمكُّن من «العربية الوظيفية» التي هي غايتنا جميعًا من التخصص في اللغة العربية وآدابها.

ونحن على ثقة من القدرة الكامنة في أبنائنا وبناتنا الطلاب والطالبات، وعلى الكفاءة والإخلاص وحسن التوجه في أساتذتهم وموجهيهم.

ونسأل الله أن يمنح الجميع التوفيق والسداد والرَّشاد.

أ.د. أحمد درويش

القاهرة في

٩ أغسطس ٢٠١٥م

سورة الفاتحة

اللغة والإعراب والبلاغة[1]



﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾

☆ **اللغة:**

﴿ ٱلْحَمْدُ ﴾: الثناء بالجميل، والنداء عليه باللسان، والشكر هو: الثناء على النعمة خاصة، فبينهما عموم وخصوص. ﴿ رَبِّ ﴾ الربّ: هو السيِّد، والمالك، والثَّابت، والمعبود، والمصلح. وزاد بعضهم الصّاحب مستدلاً بقوله:

فـدنـا لـه ربّ الكـلاب بكفّـه
بيـض رهـاف ريشهـنّ مُقَـزَّع

والمربي: الذي يسوس من يربيه ويدبره، فهو اسم فاعل حذفت ألفه، كما

[1] "إعراب القرآن الكريم وبيانه" للأستاذ محيي الدين الدرويش" ج١ ص ٢٨ ـ ٣٥.

قيل: بارّ وبَرّ. وقيل: مصدر وصف به، ويقيَّد بالإضافة، نحو: ربّ الدّار، من ربّه يربّه. وقيل: هو صفة مشبّهة مصوغة من فعل متعدّ، فلا بد من تقديره لازماً بالنقل إلى فعل بالضم. ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جمع عالَم - بفتح اللام - وجُمِع جمع المذكر السالم العاقل تغليباً، والمراد به جميع الكائنات، ولذلك أدرجه النُّحاة فيما ألحق بجمع المذكر. والنّكتة فيه هي: أن هذا اللفظ لا يطلق عند العرب على كل كائن وموجود كالحجر والتراب، وإنما يطلقونه على كل جملة متمايزة لأفرادها صفات تقربها من العاقل الذي جمعت جمعه وإن لم تكن منه، فيقال: عالم الإنسان، وعالم الحيوان، وعالم النبات. والعالم لا واحد له من لفظه، ولا من غير لفظه لأنه جمع لأشياء مختلفة ﴿ٱلدِّينِ﴾: الجزاء. ويوم الدّين: يوم الجزاء، ومنه قول العرب: «كما تدين تدان» وقول الشاعر:

ولم يبــــقَ ســــوى العــــدوا ن دِنَّــــاهــــم كمــــا دانُــــوا

والدِّين أيضاً: الطاعة، كقوله تعالى: ﴿فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾، والدّين أيضاً: الملّة، قال المثقِّب العبديُّ:

تقــولُ إذا دَرَأْتُ لها وَضِينـي أهــذا دِينُــه أبــداً ودِينــي؟

﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾: الطَّريق الواضح والمنهاج. قال جرير:

أميرُ المــــؤمنيــــنَ على صِراطٍ إذا اعــوجَّ المــوارِدُ مُسْتَقِيــمِ

وفي الصراط أربع لغات: السِّراط بالسِّين، من سرط الشيء إذا بلعه، وسُمِّي الطريق سراطاً لجريان الناس فيه كما يجري الشيء المبتلع. والصراط، وبالزاي خالصة، وبإشمام الصاد الزاي. وكل هذه اللغات قد قُرِىء به ويُذكَّر ويُؤنَّث، وتذكيره أكثر.

○ الإعراب:

﴿ٱلْحَمْدُ﴾ مبتدأ ﴿لِلَّهِ﴾ جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ﴿رَبِّ﴾: صفة لله أو بدل منه ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مضاف إليه مجرور وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه ملحق بجمع المذكَّر السالم. ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ

ٱلرَّحِيمِ ﴾ صفتان لله تعالى أيضاً ﴿ مَٰلِكِ ﴾ صفة رابعة لله، وقرىء ملك، وبينهما فرق دقيق وهو أن المالك هو ذو الملك بكسر الميم. والملك: ذو الملك بضمِّها. قال أهل النحو: إن ملكاً أمدح من مالك، وذلك أن المالك قد يكون غير ملك، ولا يكون الملك إلا مالكاً، وجمع الملك أملاك وملوك، وجمع المالك ملاك ومالكون ﴿ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ مضاف إليه ﴿ إِيَّاكَ ﴾ ضمير منفصل في محل نصب مفعول به مقدَّم للاختصاص ﴿ نَعْبُدُ ﴾ فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً تقديره نحن ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ عطف على إياك نعبد، ونستعين: فعل مضارع مرفوع، وهو معتل أجوف، والأصل فيه نستعون، فاستثقلت الكسرة على الواو، فنقلت إلى العين، فانقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، فصار نستعين ﴿ ٱهْدِنَا ﴾ فعل أمر مبني على حذف العلَّة، وهو هنا بمعنى الدُّعاء، ونا ضمير متصل في محل نصب مفعول به، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً تقديره: أنت ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ﴾ مفعول به ثان، أو منصوب بنزع الخافض؛ لأنّ هدى لا تتعدى إلا إلى مفعول واحد، وتتعدى إلى الثاني باللام كقوله تعالى: ﴿ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩] أو بإلى كقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢] ولكن غلب عليها الاتّساع فعدَّاها بعضهم إلى اثنين. وقد نظم بعضُ الظرفاء أبياتاً ضمَّنها الأفعال التي تتعدى إلى واحد وإلى الثاني بحرف جر، وهي:

تعدى من الأفعال طوراً بنفسه ... وحيناً بحرف الجر للثَّان ماترى

دعا في النِّدا سمّى كذا كنى ... وزوجه واستغفر اختار غيرا

أمرت صدقت الوعد كلت وزنته ... عفا وهدى مَنّى كذا سأل اذكرا

ومجموعها ستة عشر فعلاً ﴿ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ صفة للصراط، وهو معتلّ، وعين الفعل فيه واو، والأصل مستقوم، فاستثقلت الكسرة على الواو، فنقلت إلى القاف، فانقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ﴿ صِرَٰطَ ﴾ بدل مطابق من الصراط ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ اسم موصول مضاف إليه في محل جر ﴿ أَنْعَمْتَ ﴾ فعل ماض مبني على السكون لاتصاله بضمير رفع متحرك،

والتاء ضمير متصل في محلِ رفع فاعل، وجملة أنعمت لا محل لها من الإعراب؛ لأنها صلة الموصول ﴿عَلَيْهِمْ﴾ جار ومجرور متعلقان بأنعمت ﴿غَيْرِ﴾ بدل من الضّمير في عليهم، أو من الذين، أو نعت للذين، وسيأتي بحث مسهب عن غير في باب الفوائد ﴿الْمَغْضُوبِ﴾ مضاف إليه ﴿عَلَيْهِمْ﴾ جار ومجرور في محل رفع نائب فاعل للمغضوب؛ لأنه اسم مفعول ﴿وَلَا﴾ الواو حرف عطف ولا زائدة لتأكيد معنى النفي، وهو ما في غير من معنى النفي، وهذه الزيادة مطَّردة ﴿الضَّالِّينَ﴾ معطوفة على المغضوب عليهم مجرور، وعلامة جره الياء لأنه جمع مذكر سالم.

□ **البلاغة:**

اشتملت هذه السورة ـ على قصرها ـ على أفانين مُتعدِّدة من البلاغة ندرجها فيما يلي:

(١) جملة الحمد لله خبر، لكنها استعملت لإنشاء الحمد، وفائدة الجملة الاسمية ديمومة الحمد، واستمراره، وثباته.

(٢) في قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فنّ التّقديم، فقد قدَّم الضمير لحصر العبادة والاستعانة بالله وحده، وقدمت العبادة على الاستعانة؛ لأن الاستعانة ثمرتها، وإعادة إياك مع الفعل الثاني تفيد أن كلًّا من العبادة والاستعانة مقصود بالذات، فلا يستلزم كل منهما الآخر، ولأن الكاف التي مع إيَّا هي الكاف التي كانت تتصل بالفعل، أعني بقوله نعبد لو كانت مؤخرة بعد الفعل، وهي كنايةٌ عن اسم المخاطب المنصوب بالفعل، فكثّرت بإيَّا متقدمة، وكان الأفصح إعادتها مع كلِّ فعل.

(٣) وفي قوله ﴿لله﴾ فن الاختصاص للدلالة على أن جميع المحامد مختصة به، وكذلك بالإضافة في قوله ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ لزوال المالكين والأملاك عن سواه في ذلك اليوم.

(٤) وفي هذه السورة فن الالتفات من لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب، ومن

لفظ الخطاب إلى لفظ الغيبة، والغرض من هذا الفن التَّطرية لنشاط الذهن جرياً على أساليبهم، ولأنه لما أثنى على الله بما هو أهل له، وأجرى عليه تلك الصفات العظيمة، ساغ له أن يطلب الاستعانة منه بعد أن مهد لذلك بما يبرر المطالبة، وهو ـ تعالى ـ خليق بالاستجابة، وللإشعار بأن أولى ما يلجأ إليه العباد لطلب ما يحتاجون إليه هو عبادته تعالى والاعتراف له بصفات الألوهية البالغة، وقال: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾ فأصرح الخطاب لما ذكر النّعمة، ثم قال: غير المغضوب عليهم فزوى لفظ الغضب عنه تحنُّناً ولطفاً، وهذا غاية ما يصل إليه البيان. وهذه مراتب الالتفات في هذه السورة:

(أ) عدل عن الغيبة إلى الخطاب بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعبُدُ وَإِيَّاكَ نَستَعِينُ﴾ بعد قوله: ﴿ٱلحَمدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلعَٰلَمِينَ﴾؛ لأن الحمد دون العبادة في المرتبة، ألا تراك تحمد نظيرك ولا تعبده، فلما كانت الحال بهذه المثابة استعمل لفظ الحمد لتوسطه مع الغيبة في الخبر، ولم يقل: الحمد لك.

(ب) ولما صار إلى العبادة، وهي قصارى الطاعات قال: ﴿إِيَّاكَ نَعبُدُ وَإِيَّاكَ نَستَعِينُ﴾ فخاطب بالعبادة إصراحاً بها، وتقرُّباً منه عزَّ وجلَّ بالانتهاء إلى عدد محدود منها.

(ج) وعلى نحو من ذلك جاء آخر السُّورة فقال: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾ فأصرح الخطاب لما ذكر النعمة، ثم قال: ﴿غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم﴾ عطفاً على الأول؛ لأن الأول موضع التقرُّب من الله بذكر نعمه وآلائه، فلما صار إلى ذكر الغضب جاء باللفظ منحرفاً عن ذكر الغاضب، فأسند إليه النعمة لفظاً، وزوى عنه لفظ الغضب تحنُّناً ولطفاً.

(د) وأتى بنون الجمع في قوله: ﴿نَعبُدُ﴾ و﴿نَستَعِينُ﴾ والمتكلم واحد؛ لأنه ورد في الشَّريعة أنه من باع أجناساً مختلفة صفقة واحدة، ثم ظهر للمشتري في بعضها عيب، فهو مخيَّر بين ردّ الجميع أو إمساكه، وليس له تبعيض الصَّفقة، بردِّ المعيب وإبقاء السَّليم، وهنا لما رأى العابد أنَّ عبادته

ناقصة معيبة لم يعرضها على الله مفردة، بل جنح إلى ضمِّ عبادة جميع العابدين إليها، وعرض الجميع صفقة كاملة راجياً قبول عبادته في ضمنها؛ لأنّ الجميع لا يردّ البتّة، إذ بعضه مقبول، وردّ المعيب وإبقاء السَّليم تبعيض للصفقة، وقد نهى سُبحانه عباده عنه، وهو لا يليقُ بكرمه العظيم، وفضله العميم، فبقي قبول الجميع.

(٥) وعلى ذكر استهلال القرآن بالفاتحة نذكر هذا الفنّ في الفاتحة، وهو براعة الاستهلال، وهو من أرقِّ فنون البلاغة وأرشقها، وحدُّه أن يبتدىء المتكلم كلامه بما يشير إلى الغرض المقصود من غير تصريح، بل بإشارة لطيفة وإيماءة بعيدة أو قريبة، والاستهلال في الأصل: هو رفع الصوت، وسمي الهلال هلالاً لأن الناس يرفعون أصواتهم عند رؤيته. ومن أمثلته في الشعر قول أبي تمام في مطلع قصيدته: «فتح عمورية»:

السَّيفُ أصدقُ أنباءً من الكتبِ
في حدِّه الحدُّ بين الجِدِّ واللَّعبِ

فقد استهلَّ قصيدته بذكر السيف، وفيه إيماءة قريبة جداً إلى الموضوع الذي نظمت القصيدة بصدده. وقد اشتهر أبو الطيب ببراعة مطالعه، ومن روائعها قوله:

أتراها لكثرة العشَّاقِ
تحسب الدَّمع خلقةً في المآقي

فقد ألمع إلى موضوع قصيدته ـ وهو الغزل ـ برشاقة زادها ابتكار المعنى في حسبان الدمع خلقة في المآقي حسناً وجمالاً.

(٦) الاستعارة التّصريحيّة في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ فقد شبَّه الدين الحق بالصراط المستقيم الذي ليس به أدقّ انحراف قد يخرجه عن حدود الاستقامة؛ لأن الخط المستقيم هو أقصر بعد بين نقطتين، ووجه الشبه بينهما أن الله سبحانه وإن كان متعالياً عن الأمكنة، لكن العبد الطالب الوصول لابُدَّ له من قطع المسافات، ومس الآفات، ليكرم بالوصول والموافاة.

(٧) التفسير بعد الإبهام، وذلك في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

(٨) التَّسجيع في ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ و﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ وفي ﴿نَسْتَعِينُ﴾ و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ والتسجيع هو اتفاق الكلمتين في الوزن والرَّويّ.

* الفوائد:

انطوت هذه السورة على فوائد لا تحصى، وسنورد ما تهمُّ معرفته منها:

(١) الألف واللام في الحمد للجنس على الأصح؛ لأن حقيقة المحامد ثابتة لله تعالى.

(٢) وسميت هذه السورة «الفاتحة» لأنها أول القرآن وبراعة استهلاله، وتسمى أمّ الكتاب لانطوائها على المثل السامية، وهي مكية على الأصح، ومن أسمائها السبع المثاني، والوافية، والكافية، والشافية، والرّقية، والكنز، والأساس، وغيرها.

(٣) ﴿غَيْرِ﴾ [الفاتحة: ٧] لفظ غير مذكر مفرد أبداً، إلا أنه إذا أريد به مؤنَّث جاز تأنيث فعله المسند إليه، تقول: قامت غير هند، وأنت تعني امرأة، وهي في الأصل صفة بمعنى اسم الفاعل وهو مغاير، ولذلك لا تتعرف بالإضافة، وقد يستثنى بها حملاً على إلا، كما يوصف بإلا حملاً عليها، وهي من الألفاظ الملازمة للإضافة لفظاً أو تقديراً، فإدخال الألف واللام عليها خطأ.

(٤) آخر الفاتحة ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ وأما لفظ آمين فليس منها ولا من القرآن مطلقاً، وهو اسم بمعنى استجب، ويسنُّ ختم الفاتحة به، وفيه لغتان: المدّ والتقصير. قال أبو نواس في المد:

صلَّى الإلهُ على لوط وشيعته ... أبا عبيدة قلْ بالله: آمينا

وقال آخر في القصر:

تباعد مني فِطْحَلٌ إذ دعوته أمين فزاد اللهُ ما بيننا بعدا

(٥) قد يقال: إن المؤمنين مهتدون، فما معنى طلبها؟ والجواب: أنَّ المطلوب هو الثباتُ على الهدى أو زيادته، وليس في كون بعض الناس لم يهتدوا ما يخرجه عن أن يكون هدى، فالشمس شمس وإن لم يرها الضَّرير، والعسل عسل وإن لم يجد طعمه الممرور، فالخيبة كل الخيبة لمن عطش والماء زاخر، ولمن بقي في الظلمة والبدر زاهر، وخبث والطَّيب حاضر.

(٦) الأرجح أن الفاتحة هي أول سورة كاملة نزلت، وأمر النبي ﷺ بجعلها أول القرآن، وانعقد على ذلك الإجماع، ونزول أول سورة العلق وهو: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ يعتبر بمثابة تمهيد للوحي المجمل والمفصَّل، فلا ينافي كونها أول سورة من القرآن، وذكر السيوطي في الإتقان: أن أول ما نزل من آي القرآن: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١] وسورة الفاتحة.

* * *

تحليل سورة (العلق) (*)

للأستاذ الدكتور / أحمد درويش

وُلِدَ عام ١٩٤٣ في منيل السلطان بمحافظة الجيزة ـ مصر . تخرج في كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة ١٩٦٧، وحصل على دكتوراه الدولة في الآداب والعلوم الإنسانية بمرتبة الشرف من جامعة السربون ـ باريس ١٩٨٢ . عُيِّن معيداً بكلية دار العلوم فمدرسا بها ، فأستاذاً مساعداً ، فأستاذاً . وعمل محاضرا في معاهد علمية عديدة أخرى مثل الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ومدرسة المعلمين العليا بباريس، وكلية الآداب بجامعة السلطان قابوس . أسهم في تكوين الجمعية المصرية للأدب المقارن، وشغل منصب نائب رئيسها. دواوينه الشعرية: ثلاثة ألحان مصرية ١٩٦٧ (بالاشتراك) ـ نافذة في جدار الصمت ١٩٧٤ . حصل على عدة جوائز تأتي في مقدمتها جائزة الدولة التقديرية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ۝١٩ ﴾(١).

(*) من كتاب «الأسلوبية» للأستاذ الدكتور / أحمد درويش.

(١) سورة العلق، الآيات ١-١٩.

*** دور الفواصل القرآنية في الإعجاز البلاغي:**

ثمة نظريات تبحث في الإعجاز القرآني وماهيته، ومن تلك النظريات نظرية النظم لشيخ البلاغيين عبد القاهر الجرجاني – الذي وصل إلى أن الإعجاز القرآني لا يمكن أن يكون في الحرف في ذاته فقط، أو في الكلمة في ذاتها فقط، أو في التعبير أو الجملة في ذاتها فقط، وإنما هو في ذلك الخليط كله، إنما هو ذلك التوافق والانسجام ووضع كل حرف وكل كلمة في موضعها بالضبط حتى لا يمكن أن تحل محلها كلمة أخرى.

لقد كان لظاهرة الفواصل القرآنية دور في النظم القرآني، ودور في أداء المعنى الذي يريده القرآن الكريم.

إن مسألة النظم التي يمكن أن تقود إلى ظاهرة الفواصل – لا يقتصر – دور الجمال فيها على أننا نعطي حلية خارجية لشيء ما، ولا على أننا نقدِّم نمطًا بلاغيًّا جميلاً؛ فالأمور أعمق من هذا. ربَّما تفسِّر هذه الأمور وتلخِّصها التعبيرات القرآنية التي تحدَّثت عن الإحكام والكتاب المحكم كما في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾[1]، والأمور تتعدى فكرة البنية اللغوية الجميلة إلى فكرة دقة العلاقات بين الجزئيات، وهي الآن أساس النظرية العلمية في الكون؛ فاللغة ليست إلا كائنًا حيًّا كبقية الكائنات الحيَّة في الكون، وصناعة اللغة إذا اقتصر دور المتحدِّث فيها أو المبدع أو الأديب على أن يعطيها الطلاء الخارجي، وعلى أن يزينها بمسحة من الجمال دون أن ينتبه إلى أهمية التماسك الداخلي الدقيق الذي تتعانق فيه ليس فقط كل كلمة مع سابقتها وتاليتها، ولكن كل حرف مع ما يسبقه وما يتلوه، إذا لم يلاحظ هذا الإحكام

---

(١) سورة هود، الآية ١.

فهو أمام بناء هشّ، حتى وإن بدا في الظاهر جميلاً، وهذا هو النسق الذي فاجأ به القرآن اللغة التي كانت جميلة في ذاتها، فيها الكلام المنسَّق المنمَّق لكن على هذه الدائرة التي يكْمُن فيها تفوُّق المتحدَّى يأتي المتحدِّي لكي يقول: إن في الأمور مراحل بعد مراحل.

هذه المراحل ربما لم تكتشف بكليتها حتى الآن؛ لأن هذا أيضًا جزء من سِرّ روعة الإعجاز القرآني؛ لأنه يسمح لكل عصر أن يرى شيئًا ويأتي العصر الآخر فيرى رؤية لا تبطل رؤى السابقين ولكنها تضيف متعة إلى ما اكتشفه اللاحقون، هذه المسألة تتضافر جيلاً بعد جيل، وهذا أيضًا هو السرّ أنَّ هذا البناء لا تخلق جدته مع الزمن. نحن – عادة – عندما نقلب كثيرًا في الكلام بعد عقدٍ أو عقدين، بعد جيلٍ أو جيلين، بعد قرنٍ أو قرنين، لابد أن نقول: لماذا؟ إن كثرة التقليب في شيء عرفنا معظم جوانبه، فيصبح التقليب عبثًا، ويصبح النظر مزيدًا من ضياع الوقت، ولكن هذا هو معنى التعبير الجميل الذي جاء عن الذكر الحكيم أنه لا تخلق جدته، إن هذه الجدة وتلك الدهشة اللتين فاجأتا العربيّ الأول بالفطرة، وفاجأت العالم الأول بالاكتشاف، وأضاف إليها العالم الثاني مزيدًا – مازالتا جديدتين، ولا تزالان في كل مرة يتم فيها التقليب تضيفان لعين الناقد البصير بعدًا من الأبعاد.

في هذا الإطار تأتي مسألة الفواصل القرآنية التي تثير في تاريخ الفن، في تاريخ البنية الموسيقية للغة، سؤالاً هامًّا؛ لأن هذا هو الذي فاجأ العرب منذ البداية؛ فقد كانوا يعرفون أنماطًا كبرى للكلام من حيث الموسقة، من حيث الإيقاع، يعرفون النثر المرسل ويستخدمونه في كلامهم العادي، والناس في كلامهم العادي الذي يقضون به حاجتهم المعيشية لا يحرصون دائمًا على أن ينطقوا الكلام المسجوع ولا الكلام الموزون، يعرفون نمطًا من الخطابة، وهذه الخطابة كانت في مجملها كلامًا يزدان من حين إلى حين بفقرات متشابهة

وإيقاعات متوازية، فيأتي فيه هذا النوع من التزاوج بين الإرسال والتقييد، بين الكلام المطلق والمسجوع، يعرفون فوق هذا درجات أخرى من الكلام المكثف؛ فإذا احتاجوا – مثلاً – إلى أن يسير النثر على الأفواه ويجري مجرى المثل أو الحكمة، كان لابد أن يُصاغ صياغة محكمة، وغالبًا ما تكون مسجوعة لكي ترتطم في الأذن وتستقر في الذهن، ومن هذا الإطار جاءت فكرة أدب المثل والحكمة عند العرب، أدب يعلو في طبقته على أدب الكلام العادي، وعلى أدب الخطابة. عرفوا النثر الديني، وهو ما كان يتمثَّل فيما يسمى عندهم **بسجع الكهَّان**، وكان لسجع الكهَّان وقعٌ خاص في الجاهلية؛ فقد كان ضربًا من الكلام يعتمد في تأثيره على قوته الموسيقية أولاً، فعندما يأتي أحدهم إلى كاهن، لا يقول له الكاهن كلامًا واضحًا، إنما يلجأ – كما يفعل المشعوذون الآن – إلى عبارات غامضة وموزونة وقصيرة، وهذه العبارات عندما تصك الأذن تُحدث تأثيرها، لا بمعناها، ولكن بإيحاءاتها ودلالاتها، في هذا الإطار جاء سجع الكهَّان الذي كان قويًّا جدًّا في الجاهلية، وكان مركزًا قصيرًا شبه موزون. ثم جاء الشعر في درجة أعلى من هذا كله، وهم بالتأكيد قد اهتدوا إلى أوزان الشعر، وإن لم يسمُّوها، وإن لم يعرفوها، فقد عرفت آذانهم الموسيقية أن هذا البيت موزون، وأن ذلك الإيقاع مقبول، وأن فلانًا خرج عليه حين صدم كلامه الأذن، فالشعر كان أعلى درجات الموسيقى، وأعلى درجات مراعاة التوازي الصوتي وتوازي القافية وموسقة الكلام، هذه هي الأنماط التي عرفها الناس في كلامهم.

فجأة جاء القرآن فأحدث تأثيرات رهيبة جدًّا في النفوس، والقصص التي تُروي وتُحكي – وهي ثابتة – تُفيد أن هذه التأثيرات لم تكن مقتصرة أبدًا على الذين آمنوا بالدعوة، بل وجدنا (الوليد بن المغيرة) يتسلل لسماع هذا الكلام والتقاط مواطن الضعف التي يظنها، ثم يعود منبهرًا مسحورًا يقول عن هذا الكلام: إن

أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وإنه يعلو ولا يعلى عليه، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة.

ما الذي جعل رجلاً ممن لا يصدق الدعوة ينبهر بهذا الكلام؟، بل إن بعض الذين صدقوا، وفي مقدمتهم عمر بن الخطَّاب الذي كان شديد العناد، كانت الصدمة الأولى عنده سماع ذلك الكلام الذي كان يرفضه في بيت أخته وتأثير هذا الكلام بوقعه عليه.

لابد أن يثار سؤال: هذا العربي، سواء كان في قمة العناد كالوليد بن المغيرة أم في درجة التقبُّل كعمر بن الخطَّاب أم في درجة الإذعان كالمؤمنين العاديين الذين يسمعون ويبكون ويتأثرون، ويقع تحت سحر هذا الكلام – بالمعنى الطيب للكلمة – فما الذي في هذا الكلام؟

*** علاقة البنية الإيقاعية للقرآن بالمألوف في أدب العرب:**

لقد جاء النمط القرآني – من ناحية البنية الإيقاعية – مختلفًا عن كل ما ألفوه، ولذلك كانت التهم التي تقال من المعاندين لا تلقى استجابة. أن يقول أحدهم: إنه شعر، فتُفهم الكلمة على أنها شعر أو أن صاحبه أو قائله شاعر، يختلف الأمر قليلاً، إذا قال: شعر، فالعرب بفطرتهم يعرفون الشعر والرجز والقصيد، ومن السهل جدًّا أن يفرقوا ويتبينوا أن هذا الكلام ليس بشعر، وإذا قيل: شاعر، فهذه مسألة أكثر خبثًا؛ لأنه يراد أن صاحبه يريد أن يؤثِّر على الناس بكلام غير واقعي، وأن يتملَّق مشاعرهم، وأن يجعلهم تحت سطوة التهديد استجابة لرغباته، ولذلك فقد نفيت هذه المسألة منذ البدء كما في قوله

ﷻ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾[١]، وقوله ﷻ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾[٢].

اختلطت عادة فكرة تهمة الشعر والشاعر بالجنون، لكن هذا لا ينفي الفكرة الإيقاعية الأساسية، فقط هي رد على الدعوى الأولى أن هذا الكلام ليس من نمط الشعر الذي ألفتموه وتعوَّدتم عليه، فإذا قيل: ما الذي يقابل الشعر؟ قيل: النثر. فهل هذا الكلام يعدُّ نثرًا؟، وهذه مسألة أثارت سؤالاً عند الباحثين في فترات طويلة، وذهب بعضهم إلى أن القرآن لا هو بشعر ولا بنثر، إنما هو قرآن، لكن هذا أيضًا من حيث الكلام، من حيث التصنيف العلمي له درجات معينة. نحن – بدلاً من أن نصف أو نصنِّف، نتساءل: ما الذي اعتمدت عليه هذه البنية من أدوات لكي تحدث هذا التأثير؟ – لابد أن نلاحظ ملاحظة عامة، هي أن فكرة ما يسمَّى بالفواصل القرآنية حقيقة ثابتة، وهي – ببساطة – هذا النوع من تشابه أواخر الآيات في السور يكون – أحيانًا – تشابهًا مطردًا في السورة كلها، وأحيانًا في بعض الآيات والانتقال إلى فاصلة أخرى في آيات تالية، ولابد أن يُلاحظ أيضًا أن هذه الظاهرة كانت أكثر شيوعًا في الوحي المكي عنها في الوحي المدني، وأن البدايات الأولى للآيات القرآنية والسور التي نزلت في مكة: العلق والمزمِّل والمدثِّر والقلم، هذه الآيات يلاحظ فيها فكرة سيطرة الفاصلة القرآنية، كأننا نقرع الأجراس ونحن ندخل مكانًا ما، وننبه الأسماع

(١) سورة الحاقة، الآية ٤١.

(٢) سورة يس، الآية ٦٩.

ونمهِّد الجو والأذن والعقل، ونعطي الأدوات الكبرى التي تسحق المعارض من البداية.

*** دراسة تحليلية لبنية الإيقاع في أول سورة نزلت:**

هذه المسألة ربما تحتاج دائمًا منَّا جميعًا إلى مزيد من العناية، لو أننا أخذنا نموذج السورة الأولى؛ لأنها هي التي قدَّمت – ما يمكن أن يسمى علميًّا – الكتلة الإيقاعية الأولى التي تلقَّاها المتحدَّى، تلقاها السامع. هل إذا نظر العربي العالم بأسرار لغته في سورة العلق – وهي أول سورة نزلت – هل سيقول عنها: هذه قصيدة؟، إنه تعوَّد أن يسمع قصيدة مثل قصيدة امرئ القيس التي مطلعها:

قفا نبك من ذِكرى حَبيب ومَنزل بسقط اللوى بَيْنَ الدخول فحَوْمَل

فيعرف أن قافية اللام المكسورة هي القافية المطردة. وهل سيقول عنها: هي خطبة كخطب سحبان وائل وقسّ بن ساعدة؟، والجواب: لا؛ لأن هذه مسألة أخرى، هل هي تنتمي إلى سجع الكهَّان؟ هذه مختلفة أيضًا، فما هذا الذي يجده؟

لو أننا أعدنا قراءة هذه السورة المعروفة جدًّا المتداولة بيننا، وحاولنا أن نتساءل: أين تكمن فكرة الفواصل القرآنية؟ وما الذي يمكن أن نجده فيها؟، سنجد أشياء تثير التساؤل، وربما يضيف إليها المتكلم والسامع مزيدًا من التأمُّل في بعض أسرار هذه السورة الأولى.

*** القاف والميم فواصل متدرجة ممهِّدة:**

السورة الأولى سورة العلق تتكوَّن – كما نعلم جميعًا – من تسع عشرة آية، في مطلعها: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ

﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾. عندما نتحرك على مستوى الآيات الأولى، نجد التدرُّج الآتي: عندنا في المفتتح آيتان انتهتا بفاصلة القاف، تلتها ثلاث آيات انتهت بالميم، وهنا نورد ملاحظة سريعة ستتطوَّر فيما بعد، هي أن القاف حرف يقع في أعمق المخارج دخولاً، والميم في أولها ابتداءً، الميم من الشفة والقاف من اللهاة، كأن الدائرة الأولى رسمت هذا الاكتمال، فكرة الإحاطة السريعة والالتفاف السريع – إذا صحَّ التعبير – بمخارج الحروف لبداية الكلام ونهايته، ونجد فكرة التدرُّج المبدئي حيث بدأت الآيات بفاصلة من آيتين تنتميان إلى القاف، ثم تدرَّجنا إلى فاصلة من ثلاث آيات تنتمي إلى الميم، لكي يتحرك الأمر على ذلك النمط، كأن الأولى بداية العمق، والثانية نهاية المخارج، وقد حدث التفاف جعل المستمع يندهش ويقول: من أين بدأت الأمور؟ وإلى أين انتهت؟!

التركيز هنا على فكرة التأثير من خلال الإيقاع، وهناك مسائل أخرى ستأتي، وهذا التأثير الأوَّليّ هو الذي سيمهد لصُلْب الفواصل؛ لأنه – كما سنرى – ليست فاصلة القاف التي تصدر من اللهاة والميم الصادرة من الشفتين إلا مدخلاً لفاصلة الألف المقصورة التي سنراها تشمل على صُلْب السورة.

هذه السورة بنيت على تأثير يكمن في الإيقاع بالدرجة الأولى؛ لأن هذا هو التأثير الذي ربما لا يشتمل بعدُ على تشريع، ولا على رسالة كبرى، ولا على تفصيل أحكام، ولا على جدال، ولا على إثارة قضايا الوحدانية، فقط هو إيقاع التجربة الأولى، من أجل هذا نستطيع أن نلمح فيها هذا النوع من الدقَّة والإحكام في كل تحركات البناء الإيقاعي.

إذا كنَّا قد لاحظنا أن الآيتين الأوليين تنتهيان بفاصلة القاف والآيات الثلاثة التالية تنتهي بفاصلة الميم، وأن فاصلة القاف تمثل

أعمق المخارج وفاصلة الميم في أوائل المخارج؛ لأنها شفوية، فإن الملاحَظة أيضًا التي يمكن أن تَرِد هي فكرة التدرُّج في استخدام الحركة التي تشكل الفاصلة. نحن عندنا في اللغة حركات اللغة، حركات الإعراب، حركات التشكيل متفاوتة، ليس فقط في الدلالة، ولكن أيضًا في الثقل والخفَّة؛ فدائمًا يقول اللغويون: إن أسهل شيء هو حركة الفتحة؛ لأن الفتحة لا تكلِّف المتكلِّم شيئًا سوى أن يفتح فمه ويرسل الهواء حُرًّا ولا يغيِّر من المخرج شيئًا، وتأتي بعدها حركة الكسرة أثقل منها، لكن أكثر الحركات ثقلاً هي حركة الضمَّة؛ لأنها تتطلَّب نوعًا من استدارة الشفتين ووضع جهاز النطق في وضعٍ خاص، وتأتي السكون دائمًا كانعدام حركة، دلالة على نهاية المقطع، نهاية الفصل، نهاية الشيء.

إنك لو تصوَّرت هذه الآيات الخمس التي تشكل افتتاحية إيقاعية للسورة، ستجد فيها هذا التدرُّج على مستوى الحركات فـ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ تنتهي بفاصلة القاف المفتوحة، فكان البدء بحركة الفتحة وهي أخفّ الحركات، وفي ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾ نحن مع الكسرة التي تتلو الفتحة ثقلاً، ثم تقودنا إلى ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾ حيث الضمة التي جاءت في هذا التدرُّج، ثم تأتي السكون في خاتمة المقطع ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾، وكأن هذا السكون الواجب في هذا الموقف هو الذي ختم مشهد التمهيد الأوليّ الذي دخل بنا إلى عُمق السورة.

*** الألف المقصورة فاصلة رئيسية:**

بعد التمهيد السابق دخلنا الموجة الرئيسية، والموجة الرئيسية عندنا من الفواصل سوف نجدها تنتمي إلى الألف المقصورة، والألف المقصورة ليست مجرَّد فتحة، ولكنها فتحة إطلاق، وهذه المجموعة التي تنتمي إلى الألف المقصورة تبدأ من الآية السادسة وتنتهي بنهاية الآية الرابعة عشرة، تأخذ تسع آيات مثاليات: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ ﴾، وكأننا – من الناحية الإيقاعية البحتة – بعد أن جرَّبنا كل المخارج وتحركنا على كل الأوتار، هذه مسألة في فنون أخرى تجرَّب عندما توقظ كل الحواس، كأن النفس تدخل في هذا الجو الذي يحتاج هذه المرة إلى تأمُّل، إلى إثارة القضايا الكبرى، والتي تقارن بين طرفين سنرى أن السورة قدمت منذ البداية نمطها الأول.

السورة دائمًا تقارن بين نمطي الشيئين المتباعدين، كما قارنت بين القاف والميم من الناحية الصوتية، فإننا سنجد المقارنة حتى على مستوى الكائن البشري بين أصغر مراحله وأعلى درجات نموه، فالمقارنة بين العلق، وهو أصغر جزيئية في بداية الخلق، وبين الذي تعلم بالقلم، أي الذي وصل إلى أعلى درجة من الرقيّ، ليس فقط الإنسان الذي تكوَّن، ولا الجسد الذي نما، لكن الذي وُلد ونما وتكوَّن وتعلَّم، هذه مسألة نراها على المستوى المعنوي تقابل تمامًا على المستوى الإيقاعي فكرة المقابلة بين القاف هنا والميم هناك، بين العلق هنا والتعلُّم بالقلم هناك، وسوف نرى أن هذه مسألة تسير معنا على مراحل كثيرة في الفواصل الأساسية عندما نرى مقارنة بين الإنسان الضعيف الذي يتباهى بقوته وبين القوى الكونية الكبرى، سنراها في نهاية السورة واضحة

جدًّا بين نمطين: نمط النادي المعاون (فليدع ناديه) وبين (الزبانية)، نراها في المقابلة بين طرفين من أطراف القوة: النادي الذي هو مجموعة من الأصحاب يجتمعون لكي يتحدثوا، والزبانية مجموعة من الملائكة عندهم هذه القوة الساحقة ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1]، لكن صُلب السورة الأساسي يتحرَّك في إطار الفاصلة المنتمية إلى الألف المقصورة، والتي تبحث القضية الأساسية فتجعلها مجرى التفكير الرئيسي.

*** خمس فواصل تشكل لوحة الختام:**

ولننظر كيف سيبدأ النزول بعد أن تم فرش القضية الأساسية وعرضها، وعندما نصل إلى هذه النقطة نلاحظ أنه بنفس درجات الصعود الأولى التي تكوَّنت من خمسة سلالم، سُلَّمان للقاف وثلاثة للميم، سيتم النزول في النهاية أيضًا على خمسة سلالم متوازية في فواصل آيات خمس متتالية ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾، نجد أنه كما حدثت خمس فواصل في البداية الممهدة وتسع فواصل في الصلب، حدثت خمس فواصل في النهاية الخاتمة، ونجد أيضًا أنه كما حدث هناك تدرُّج في العلوّ، حدث هنا تدرُّج في النزول، وكما انتهت المقدمة الأولى بالميم الساكنة، جاءت الفاصلة الأخيرة منتهية بالباء الساكنة، هناك إذن نوع من التوازي الإيقاعي الدقيق جدًّا بين فواصل الآيات، حتى كأنها بناء إيقاعي محكم إلى جانب الإحكام في جوانب أخرى.

---

(١) سورة التحريم، الآية ٦.

مصـــر (*)

لحافظ إبراهيم

حافظ إبراهيم (١٨٧٢-١٩٣٢م) شاعر مصري ذائع الصِّيت، وُلد بأسيوط، عاصر أحمد شوقي، ولُقب بشاعر النيل، وبشاعر الشعب. ترك ديوان شعر، توفي قبل شوقي بأشهرٍ قليلة (٢١/يونيو/١٩٣٢م).

يقول:

وَقَـفَ الخَلْـقُ يَنْظُـرُونَ جَمِيعًـا ... كَيْـفَ أَبْنِـي قَوَاعِـدَ المَجْـدِ وَحْـدِي

وَبُنَـاةُ الأَهْـرَامِ فِـي سَـالِفِ الدَّهْـ ... ـرِ كَفَـوْنِي الكَـلاَمَ عِنْـدَ التَّحَـدِّي

أَنَـا تَـاجُ العَـلاءِ فِـي مَفْـرِقَ الشَّـرْ ... قِ ودُرَّاتُـــهُ فَرائـــدُ عِقْـــدِي[١]

أَيُّ شَـيْءٍ فِـي الغَرْبِ قَدْ بَهَرَ النَّـا ... سَ جَمَـالاً وَلَـمْ يَكُـنْ مِنْـه عِنْـدِي؟

فَتُرَابِـــي تِبْـــرٌ وَنَهْـــرِي فُـــرَاتٌ ... وَسَـــمَائِي مَصْـــقُولَةٌ كَالفِرِنْـــدِ[٢]

أَيْنَمَـا سِـرْتَ جَـدْوَلٌ عِنْـد كَـرْمٍ ... عِنْـدَ زَهْـرٍ مُـدَثَّرٍ عنـد رَنْـدِ[٣]

وَرِجَـالِي لَـوْ أَنْصَـفُوهُمْ لَسَـادُوا ... مِـنْ كُهُـولٍ مِـلْءِ العُيُـونِ وَمُـرْدِ[٤]

لَـوْ أَصَـابُوا لَهُـمْ مَجَـالاً لأَبْـدَوْا ... مُعْجِـزَاتِ الـذَّكَاءِ فِـي كُـلِّ قَصْـدِ

(*) من ديوان حافظ إبراهيم.

(١) العلاء (بالفتح والمدّ): الرفعة والشرف. والمفرق (كمقعد ومجلس): وسط الرأس. والفرائد: الجواهر التي لا توائم لها لنفاستها؛ الواحدة فريدة. ويريد بـ«درَّاته»: ممالك الشرق التي كان لمصر الزعامة عليها.

(٢) الفرات: العذب. والفرند: السيف.

(٣) مدثر: أي مختلف الألوان، أو مشرق متلألئ. والرند: شجر طيب الرائحة، وله حب يقال له: الغار.

(٤) ملء العيون: أي تعجبك مناظرهم، والمرد: جمع أمرد، وهو الشاب نبت شاربه ولم تنبت لحيته.

إِنَّهُمْ كالظُّبَا أَلَحَّ عَلَيْهَا ... صَدَأُ الدَّهْرِ مِنْ ثَوَاءٍ وَغِمْدِ[١]

فَإِذَا صَيْقَلُ القَضَاءِ جَلاهَا ... كُنَّ كَالمَوْتِ مَا لَهُ مِنْ مَرَدِّ[٢]

أَنَا إِنْ قَدَّرَ الإِلهُ مَمَاتِي ... لاَ تَرَى الشَّرْقَ يَرْفَعُ الرَّأْسَ بَعْدِي

مَا رَمَانِي رَامٍ وَرَاحَ سَلِيمًا ... مِنْ قَدِيمٍ عِنَايَةُ اللهِ جُنْدِي

كَمْ بَغَتْ دَوْلَةٌ عَلَيَّ وَجَارَتْ ... ثُمَّ زَالَتْ وَتِلْكَ عُقْبَى التَّعَدِّي

إِنَّنِي حُرَّةٌ كَسَرْتُ قُيُودِي ... رَغْمَ رُقْبَى العِدَا وَقَطَّعْتُ قِدِّي[٣]

وَتَمَاثَلْتُ للشِّفَاءِ وقَدْ دَا ... نَيْتُ حَيْنِي وَهَيَّأَ القَوْمُ لَحْدِي[٤]

قُلْ لِمَنْ أَنْكَرُوا مَفَاخِرَ قَوْمِي ... مِثْلَ مَا أَنْكَرُوا مَآثِرَ وُلْدِي

هَلْ وَقَفْتُمْ بِقِمَّةِ الهَرَمِ الأَكْـ ... ـبَرِ يَوْمًا فَرَيْتُمُ بَعْضَ جُهْدِي؟[٥]

هَلْ رَأَيْتُمْ تلك النُّقُوشَ اللَّوَاتِي ... أَعْجَزَتْ طَوْقَ صَنْعَةِ المُتَحَدِّي؟[٦]

حَالَ لَوْنُ النَّهَارِ مِنْ قِدَمِ العَهْـ ... ـدِ وَمَا مَسَّ لَوْنَها طُولُ عَهْدِ[٧]

هَلْ فَهِمْتُمْ أَسْرَارَ مَا كَانَ عِنْدِي ... مِنْ عُلُومٍ مَخْبُوءَةٍ طَيَّ بَرْدِي؟[٨]

ذَاكَ فَنُّ التَّحْنِيطِ قَدْ غَلَبَ الدَّهْـ ... ـرَ وَأَبْلَى البِلَى وَأَعْجَزَ نِدِّي

---

(١) الظبا: جمع ظبة؛ وهي حدّ السيف والسنان ونحوهما. والثواء: طول المكث.

(٢) الصيقل: شاحذ السيوف وجاليها؛ والجمع: صياقل وصياقلة.

(٣) رقبى العدا: أي مراقبتهم لي. والقد: القيد يقدّ من جلد.

(٤) الحين (بالفتح): الهلاك.

(٥) فريتم: أي فرأيتم.

(٦) الطوق: الطاقة والجهد. والمتحدي: المعارض الذي ينازعك الغلبة والفخر.

(٧) حال: تغير وتحوّل.

(٨) البردي (بالتشديد وَخُفِّفَ للشِّعر): نبات تعمل منه الحصر وكان يصنع منه الورق قديمًا.

قَدْ عَقَدْتُ العُهُودَ مِنْ عَهْدِ فرْعَوْ ... نَ فَفِي (مِصْرَ) كان أَوْلُ عَقْدِ[١]

إنَّ مَجْدِي فِي الأُولَيَاتِ عَرِيقٌ ... مَنْ لَهُ مِثْل أُولَيَاتِي وَمَجْدِي؟[٢]

أَنَا أمُّ التَّشْرِيعِ قَدْ أَخَذَ الرُّو ... مانُ عَنِّي الأصُولَ فِي كُلِّ حَدّ[٣]

وَرَصَدْتُ النُّجُومَ مُنْذُ أَضَاءَتْ ... فِي سَمَاءِ الدُّجَى فَأَحْكَمْتُ رَصْدِي[٤]

وَشَدا (بنْتَئُورُ) فَوْقَ رُبُوعِي ... قَبْلَ عَهْدِ اليُونَانِ أَوْ عَهْدِ (نَجْدِ)[٥]

وَقَدِيمًا بَنَى الأَسَاطِيلَ قَوْمِي ... فَفَرَقْنَ البِحَارَ يَحْمِلْنَ بَنْدِي[٦]

قَبْلَ أُسْطُولِ (نِلْسن) كان أُسْطُو ... لِي سَرِيًّا وَطَالِعِي غَيْرَ نَكْدِ[٧]

---

(١) يشير إلى المحالفة التي عقدت بين رمسيس الثاني وملك الحيثين سنة ١٢٥٠ ق.م على أن يمسكا عن الحروب، وأن يكونا صديقين إلى الأبد. وقد حدَّدا في تلك المحالفة حدود أملاكهما، وهي أقدم محالفة عرفت في التاريخ.

(٢) الأوليات، أي السنين الأولى.

(٣) يشير إلى ما هو معروف من أن المصريين قديمًا كانوا مصدر القوانين الإدارية، وعنهم أخذت الأمم المجاورة لهم، وقد وفد إليهم من واضعي القوانين ليكرغ وصولون اليونانيان، وعن اليونان أخذ الرومان.

(٤) كان المصريون من أقدم الأمم التي اشتغلت بعلم الفلك؛ وقد ذكر مؤرِّخو اليونان أن أممهم أخذت هذا العلم عن المصريين؛ وقد عثر في بعض المقابر على آلات للرصد ومصوّرات لشكل السماء ومواقع نجومها.

(٥) بنتئور: أقدم شاعر عرفه التاريخ، وهو مصري. و«قبل عهد اليونان»...إلخ، أي قبل شعراء اليونان وشعراء العرب.

(٦) فرقن البحار: شققنها. والبند: العلم الكبير. وقد ذكر المؤرخون أن نخاو من ملوك مصر القدماء، كان قد أرسل عددًا من الملاَّحين للطواف بسفنهم حول إفريقية، فأتموا سياحتهم في ثلاث سنين.

(٧) نلسن، هو أمير البحر الإنجليزي الذي أحرق أسطول نابليون بونابرت في موقعة أبي قير المعروفة. والنكد: الشؤم.

فَسَلُوا البَحْرَ عَنْ بَلاَءِ سَفِينِي ... وَسَلُوا البَرَّ عَنْ مَوَاقِعِ جُرْدِي[١]

أَتُرَانِي وَقَدْ طَوَيْتُ حَيَاتِي ... فِي مِراسٍ لَمْ أَبْلُغِ الْيَوْمَ رُشْدِي؟

أَيُّ شَعْب أَحَقُّ مِنِّي بِعَيْشٍ ... وَارِفِ الظِّلِّ أَخْضَرِ اللَّوْنِ رَغْدِ؟[٢]

أَمِنَ الْعَدْلِ أَنَّهُمْ يَرِدُون المَـ ... ـمَاءَ صَفْوًا وَأَنْ يُكَدَّرَ وِرْدِي؟

أَمِنَ الحَقِّ أَنَّهُمْ يُطْلِقُونَ المَـ ... أُسْدَ مِنْهُمْ وَأَنْ تُقَيَّدَ أُسْدِي؟

نِصْفُ قَرْنٍ إِلاَّ قَلِيلاً أُعَانِي ... مَا يُعَانِي هَوَانَهُ كُلُّ عَبْدِ

نَظَرَ اللهُ لِي فَأَرْشَدَ أَبْنَا ... ئِي فَشَدُّوا إِلَى العُلاَ أَيَّ شَدِّ

إِنَّمَا الحَقُّ قُوَّةٌ مِنْ قُوَى الدَّيـ ... ـانِ أَمْضَى مِنْ كُلِّ أَبْيَضَ هِنْدِي[٣]

قَدْ وَعَدْتُ العُلاَ بِكُلِّ أَبِيٍّ ... مِنْ رِجَالِي فَأَنْجِزُوا اليَوْمَ وَعْدِي

أَمْهِرُوهَا بِالرُّوحِ فَهِيَ عَرُوسٌ ... تَشْنَأُ المَهْرَ مِنْ عُرُوضٍ وَنَقْدِ[٤]

وَرِدُوا بِي مَنَاهِلَ العِزِّ حَتَّى ... يَخْطُبَ النَّجْمُ فِي المَجَرَّةِ وُدِّي[٥]

وَارْفَعُوا دَوْلَتِي عَلَى العِلْمِ والأَخْـ ... ـلاقِ فَالعِلْمُ وَحْدَهُ لَيْسَ يُجْدِي[٦]

وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ فَالصَّبْرُ إِنْ فَا ... رَقَ قَوْمًا فَمَا لَهُ مِنْ مَسَدِّ[٧]

---

(١) الجرد: الخيل. ويريد الجيوش البريَّة.

(٢) الوارف من الظلال: الواسع الممتد.

(٣) الأبيض الهندي: السيف.

(٤) تشنأ: تكره. والعروض: جمع عرض (بالتحريك)، وهو كل شيء سوى الدراهم والدنانير.

(٥) «يخطب النجم...إلخ»: كناية عن العلوِّ والرِّفعة.

(٦) يجدي: ينفع.

(٧) من مسدْ، أي من شيء يقوم مقامه.

خُلُـقُ الصَّـبْرِ وَحْـدَه نَصَـرَ القَـوْ ... مَ وَأَغْنَـى عَـن اختِـرَاعٍ وَعَـدِّ[١]

شَـهِدُوا حَوْمَـةَ الـوَغَى بِنُفُـوسٍ ... صَـابِرَاتٍ وَأَوْجُـهٍ غَيْـرِ رُبْـدِ[٢]

فَمَحَا الصَّبْرُ آيـةَ العِلْمِ فِـي الحَرْ ... بِ وَأَنْحَـى عَلَـى القَـوِيِّ الأَشَـدِّ[٣]

إِنَّ فِـي الغَـرْبِ أَعْيُنًـا رَاصِـدَاتٍ ... كَحَلَتْهـا الأَطْمَـاعُ فِـيكُمْ بِسُـهْدِ[٤]

فَوْقَهَـا مِجْهَـرٌ يُرِيهَـا خَفَايَـا ... كُـمْ وَيَطْـوِي شُـعَاعُهُ كُـلَّ بُعْـدِ[٥]

فَاتَّقُوهَـا بِجُنَّـةٍ مِـنْ وِئَـامٍ ... غَيْـرِ رَثِّ العُـرَا وَسَـعْيٍ وَكَـدِّ[٦]

واصْفَحُوا عَنْ هَنَاتِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ ... رُبَّ هَـافٍ هَفَـا عَلَـى غَيْـرِ عَمْـدِ[٧]

نَحْـنُ نَجْتَـازُ مَوْقِفًـا تَعْثُـرُ الآ ... رَاءُ فِيـهِ وَعَثْـرَةُ الـرَّأْيِ تُـرْدِي[٨]

وَنُعِيـرُ الأَهْـوَاءَ حَرْبًـا عَوَانًـا ... مِنْ خِـلافٍ والخُلْفُ كالسِّلِّ يُعْدِي[٩]

---

(١) يريد «بالقوم»: الإنجليز، وذلك لما اشتهروا به من الصبر والأناة.

(٢) الوغى: الحرب، لما فيها من الجلبة والصوت. وحومتها: ساحتها. وربد: عابسة متجهمة؛ الواحد أربد.

(٣) يريد «بآية العلم»: ما اخترعه العلم من أسلحة. وأنحى عليه: أقبل عليه بالإضعاف والإهلاك. ويريد «بالقوي الأشد»: الألمان.

(٤) «كحلتها الأطماع...إلخ»، أي إن طمع الغربيين فيكم جعل أعينهم يقظة لا تذوق النوم، تتحين بكم الفرص.

(٥) المجهر: المنظار.

(٦) الجنة (بالضمّ): ما وقاك في الحرب. والرثّ: البالي. ويريد «بالعرا»: الصلات والروابط؛ الواحدة عروة.

(٧) الهنَات: جمع هنَة، وهي اليسير المحتمل من الزلاَّت. ويشير بهذا البيت إلى اختلاف الزعماء الذي بدأت بوادره في ذاك الحين على رئاسة المفاوضات الرسمية.

(٨) تردي: تهلك.

(٩) الحرب العوان: التي قوتل فيها مرة بعد أخرى، كأنهم جعلوا الأولى بكرًا، وهي أشدّ الحروب.

وَنُثِيـرُ الفَوْضَـى عَلَـى جَانِبَيْـه ... فَيُعِيـدُ الجَهُـولُ فِيهَـا وَيُبْـدِي[١]

وَيَظُـنُّ الغَـوِيُّ أَنْ لا نِظَـامٌ ... وَيَقُـولُ القَـوِيُّ قَـدْ جَـدَّ جِـدِّي

فقِفُـوا فِيـهِ وَقْفَـةَ الحَـزْمِ وَارْمُـوا ... جَانِبَيْـهِ بِعَزْمَـةِ المُسْـتَعِدِّ

إِنَّنَـا عِنْـدَ فَجْـرِ لَيْـلٍ طَوِيـلٍ ... قَـدْ قَطَعْنَـاهُ بَـيْنَ سُـهْدٍ وَوَجْـدِ

غَمَرَتْنَـا سُـودُ الأَهَاوِيـلِ فِيـهِ ... وَالأَمَـانِيُّ بَـيْنَ جَـزْرٍ وَمَـدِّ[٢]

وَتَجَلَّـى ضِـيَاؤُهُ بَعْـدَ لأْي ... وَهْـوَ رَمْـزٌ لِعَهْـدِيَ المُسْـتَرَدِّ[٣]

فَاسـتَبِينُوا قَصْـدَ السَّـبِيلِ وَجِـدُّوا ... فَالمَعَـالِي مَخْطُوبَـةٌ لِلْمُجِـدِّ[٤]

---

(١) الضمير في قوله «جانبيه» يعود على قوله «موقفا» المتقدِّم ذكره.

(٢) الأهاويل: جمع أهوال.

(٣) بعد لأي، أي بعد إبطاء واحتباس ومشقَّة.

(٤) قصد السبيل: الطريق المستقيم.

الطاقة الشمسية(*)

لمحمد المخزنجي

محمد المخزنجي وُلد سنة ١٩٥٠م، طبيب وكاتب مصري، يُعتبر من أبرز مُبدعي القصة في العالم العربي، وهو مهتم بتبسيط الحقائق العلمية في أسلوب قصصي عربي فصيح .

قرب ظهيرة الجمعة ٢٠ أغسطس ١٨٩٧ بدت الشمس أكثر إشراقًا في ضاحية «تاكوني» بمدينة فيلادلفيا الأمريكية، وهو أمرٌ لا يتكررُ كثيرًا في هذه البقعة الشماليةِ من الولاياتِ المتحدة، وفي فناء خلفي لبيت ذي عمارةٍ مختلطةٍ ولونٍ قرميدي، ظهر صاحبُ البيت وسطَ لفيف من المعارف والجيران، حاملاً بين يديه صندوقًا متوسط الحجم مثيرًا للفضول. كان الرجلُ يُدعى «فرانك شومان» مواطنٌ أمريكي من أصل ألماني، وما إن توسط هو وركبه الفناء، حتى فض سر الصندوق الذي يحمله، وظهر قطار صغير، «لعبة» وضعه «شومان» على بقعة مستوية بتؤدة، وران على المكان صمتٌ مترقّب دام لبضع دقائق، ثم وكأن اللعبة دبَّت فيها حياة خفية، صدر عنها صوت قرقرة وفرفرة، وتقلقل القطار الصغير، ثم انطلق وأخذ يسرع في انطلاقه، فاندفع شومان ومن حوله من رجال ناضجين وسيدات، في صخبٍ مرحٍ، يلاحقون القطارَ المتهورَ الذي بدا وكأن عفريتًا لعبيًّا كان ينطلق به!

هذا القطار «اللعبة» لم يكن بالطبع ينطوي على أي عفريت، ولم يكن يعمل بطاقة ميكانيكية لنابض ما، ولا محرك تشغله أي طاقة مما كان معروفًا أيامها، فقد كان ينطلق بطاقة الشمس، لا أكثر!.. اتضح بعد ما يقارب خمسة

(*) قصة قصيرة من كتاب «البستان» القصصي، لمحمد المخزنجي.

أعوام أنها لم تكن مجرد لعبة، بل بداية مشروع كبير لتغيير منطق البشرية النهمة في إحراق الفحم الملوث، والمتلمظة لإحراق النفط الثمين عند بواكير اكتشافه، فالرجل كان يسعى لبناء أول محطة طاقة شمسية في العالم، ولم يجد شومان حينها غير مصر، مكانًا ملائمًا لإقامة هذه المحطة الاختراق، ليس فقط لشمسها التي لمح شومان ذهبها النفيس مبكرًا، ولكن أيضًا لأنه لمح ظروفًا وسواعد في مصر ستعينه لتحقيق طموحه. لقد كانت مصر وقتها تحت الاستعمار البريطاني.

بينما كان اللورد كتشنر يصل إلى مصر عام ١٩١١ كمندوب سامي بريطاني وقنصل عام لما كانوا يدعونه «السودان المصري الإنجليزي»، كان فرانك شومان في تاكوني يتهيَّأ للقفزة الكبرى باتجاه القاهرة، وفي ربيع ١٩١٢ أبحر باتجاه الإسكندرية، ومنها إلى القاهرة، حيث بدأ في البحث عن قطعة أرض لمشروعه التاريخي المأمول، وتكوين فريق من الأيدي العاملة المصرية، ومن المؤكد أن ذلك لم يكن بعيدًا عن أعين الإنجليز، وعيني اللورد كتشنر على وجه الخصوص، فلا ريبَ أنهم كانوا ينظرون إلى المشروع، على اعتباره يخصهم أولاً وأخيرًا، في بقعة يهيمون عليها، ويمنحهم المشروع مزيدًا من الهيمنة عليها. وهكذا صار مشروع المخترع العبقري شومان لتوظيف طاقة الشمس النبيلة، ينمو في ظل رعاية كتشنر.

في خريف ١٩١٢، في ضاحية المعادي، على مقربة عشرين كيلومترًا من قلب القاهرة، شهدت الدنيا تشييد أول محطة ذات حجم صناعي لرفع الماء بالطاقة الشمسية، وفي أغسطس ١٩١٣ وأمام حشد من الحضور كان على رأسه اللورد كتشنر نفسه، تم تشغيل المحطة التي أذهلت الحاضرين، وانتقل إذهالها إلى الصحف العالمية الغربية، فقد رأوا الشمس تعمل، والمحرك العملاق

يدور بفضل طاقتها لا غيرها، فترفع مضخاته ٢٠٠٠ لتر في الدقيقة من مياه نهر النيل لري حقول القطن التي كانت في المعادي، وقد دفع الانبهار اللورد كتشنر إلى تقديم ١٢٠٠٠ هكتار من زراعات القطن في «السودان البريطانية»! لتُروَى بتقنيات الطاقة الشمسية البازغة سخية الوعود، والتي سرعان ما غابت، بل تم تغييبُها قسرًا وطمعًا ولؤمًا، وغباوةً!

في خريف ١٩١٣ أقنع تشيرشل البرلمان البريطاني بشراء مخزونات ضخمة من النفط بأسعار زهيدة بالطبع لسفن القوات البحرية لتعمل بوقود الديزل، وكانت تلك أول إشارة لتأجيج إحراق مادة النفط الثمينة كوقود، للحرب في البداية، وربما في النهاية أيضًا. وبسهولة ورعونة وبخس إحراق النفط، بدأت جريمةُ إحراق أمل بشري كوني عظيم في طاقة ربانية ومجانية ونظيفة، هي طاقة الشمس المُستدامة مادام نجمُها الأم يشرق على الدنيا. فهل كان فرانك شومان يستشعر ذلك، ويدرك إن إحراق النفط كوقود مستهل ومسترخص، يضع نهاية لطموحه في طاقة الشمس النبيلة على الأرض المصرية؟ ربما، ففي نهاية خريف ١٩١٣ ذاته أبحر شومان من الإسكندرية إلى أرض أجداده الألمان.

في عام ١٩١٤ كتب فرانك شومان مقالاً جاء فيه: «شيءٌ واحدٌ أشعرُ بالتأكد منه، هو أن الجنس البشري ينبغي في النهاية أن ينتفعَ من طاقة الشمس المباشرة، وإلا سيرتد إلى مراحل الهمجية». قولٌ لعله بدا مُبالغًا فيه حين نشره منذ قرنٍ مضى، لكنه الآن يكاد يشكل نبوءة تتحقق أمام أعيننا، فما نراه من حروب عابرة للأقطار واحترابات تنطلق من فتن داخلية بأقنعة دينية أو عرقية أو حدودية، إنما يحرك معظمها الصراع على مصادر الطاقة، التي لم يعد في جعبتها القديمة الكثير، فالنفط والغاز واليورانيوم مصادر طاقة يتوقَّع

نضوبها بعد ٦٠-٧٠ سنة، طبقًا لمعدلات استهلاكها الحالية، ومع مرور الوقت سيزيد اشتعال الصراع عليها مع ارتفاع أسعارها، وهذا لا يُبشِّر إلا بحروب واحترابات وفتن لن تكون إلا همجية، سواء بقطع الرقاب أو بالقصف الجوي لقاطعي الرقاب كما نرى، فكلاهما كاذب، ومهووس بالسيطرة، ومن ثم متطلع بشراهة للثروة التي لا تزال طاقتها الأولى هي النفط والغاز، ونحن الذين لا نفط لدينا ولا غاز يُعتدّ به، وتحيط بنا همجيات الصراع على الطاقة من كل نوع، لا نجاة لنا من همجيات دخيلة أو داخلية، إلا بتنمية جادة تحتاج أول ما تحتاج للطاقة، فهل كان صدفة أن أول مفاعل شمسي حراري نجح في أرضنا، وروى عطش حقولنا؟ لا، ليست صدفة، لأن مقوماتها لا تزال قائمة، ووفيرة كما كانت، كما أن الصدفة لا تأتي إلا لمن يستحقها. فهل نُمعن في هذا الاستحقاق الذي دونه الوهن، وتسلُّل الهمجية إلينا؟

إن حكاية الأعجوبة التي تألقت على أرضنا منذ مائة عام وعام، مهما اختفت لمائة عام وعام أو أكثر، تظل رسالة تخصنا قبل غيرنا، تقول إن ظروفنا كافة تحضنا على حمد الله على نعمة الشمس وتفعيل طاقتها، وتنميتها بإطراد نحو آفاق واعدة تكتنزها هذه الطاقة، المُنقِذة من الهمجية، همجية الفقر، والارتهان للغير، واندفاعات اليائسين، ومؤامرات الشياطين، ولأختتم بنداءٍ أطلقه فرانك شومان كأنه موجهٌ إلينا تحديدًا في شأن الطاقة الشمسية: «على المهندسين والمبتكرين، وذوي البصيرة أن يُفعِّلوا هذا الاتجاه، ليس فقط من أجل منفعتِهم الخاصة، بل من أجل الرخاء الدائم للجنس البشري».

قصيدة «الخيول»(*)

لأمل دُنقل

وُلد أمل دنقل عام ١٩٤٠م في أسرة صعيدية، وقد كان والده عالمًا من علماء الأزهر الشريف مما أثر في شخصيته وقصائده بشكل واضح. سُمِّيَ بهذا الاسم لأنه وُلِدَ في نفس السنة التي حصل فيها والده على إجازة العالمية فسمَّاهُ باسم أمل تيمنًا بالنجاح الذي حققه. وتوفي في ٢١ مايو عام ١٩٨٣م عن عمر ٤٣ سنة.

يقول: الفتوحات في الأرض مكتوبة بدماء الخيول

وحدود الممالك

رسمتها السنابك

والركابان: ميزان عدل يميل مع السيف حيث يميل

اركضي أو قفي الآن أيتها الخيل

لست المغيرات صبحا

ولا العاديات – كما قيل – ضبحا

ولا خضرة في طريقك تمحى

ولا طفل أضحى

إذا ما مررت به يتنحى

وها هي كوكبة الحرس الملكي

تجاهد أن تبعث الرُّوح في جسد الذكريات بدق الطبول

اركضي كالسلاحف

نحو زوايا المتاحف

(*) من ديوان «أوراق الغرفة» لأمل دنقل.

صيري تماثيل من حجر في الميادين
صيري أراجيح من خشبٍ للصغار – الرياحين
صيري فوارس حلوى بموسمك النبوي
وللصبية الفقراء حصانًا من الطين
صيري رسومًا.. ووشمًا
تجف الخيوط به مثلما جفَّ – في رئتيك – الصهيل
اركضي كالسلاحف نحو زوايا المتاحف
كانت الخيلُ – في البدءِ – كالناس
برِّيَّة تتراكضُ عبر السهول
كانت الخيلُ كالناس في البدءِ
تمتلكُ الشمس والعشب والملكوت الظليل
ظهرها.. لم يوطأ لكي يركب القادة الفاتحون
ولم يلن الجسدُ الحُرُّ تحت سياطِ المروِّض
والفمُ لم يمتثل للجام
ولم يكن... الزاد بالكاد
لم تكن الساق مشكولة
والحوافر لم يك يثقلها السنبك المعدني الثقيل
كانت الخيلُ برِّيَّة
تتنفس حرية
مثلما يتنفسها الناس في ذلك الزمن الذهبي النبيل
اركضي.. أو قفي
زمنٌ يتقاطعُ

واخترتِ أن تذهبي في الطريق الذي يتراجعُ
تنحدرُ الشمس، ينحدرُ الأمس
تنحدر الطرق الجبلية للهوَّة اللانهائية
كل نهر يحاول أن يلمس القاع
الشهب المتفحمة
الذكريات التي أشهرت شوكها كالقنافذِ
والذكريات التي سلخ الخوفُ بشرتها
كل نهر يحاول أن يلمس القاع
كل الينابيع إن لمست جدولاً من جداولها تختفي
وهى... لا تكتفي
فاركضي أو قفي
كل دربٍ يقودك من مستحيل إلى مستحيل! !
الخيولُ بساط على الريح
سار – على متنه – الناسُ للناسِ عبر المكان
والخيولُ جدارٌ به انقسم، الناس صنفين
صاروا مشاةً وركبان
والخيول التي انحدرت نحو هوة نسيانها
حملت معها جيل فرسانها
تركت خلفها: دمعة الندى الأبدي
وأشباح خيل
وأشباه فرسان
ومشاةٍ يسيرون– حتى النهاية – تحت ظلال الهوان

اركضي للقرار

واركضي أو قفي في طريق الفرار

تتساوى محصلة الركض والرفض في الأرض

ماذا تبقى لكِ الآن؟ ماذا؟

سوى عرقٍ يتصببُ من تعبٍ

يستحيل دنانير من ذهبٍ

في جيوب هواةِ سلالاتك العربية

في حلبات المراهنةِ الدائرية

في نزهة المركبات السياحية المشتهاة

وفي المتعة المشتراة

وفي المرأة الأجنبية تعلوكِ في ظلالِ أبي الهول

هذا الذي كسرت أنفه

لعنة الانتظار الطويل

استدارت – إلى الغربِ – مزولة الوقت

صارتِ الخيلُ ناساً تسيرُ إلى هوَّةِ الصمت

بينما الناسُ خيلٌ تسيرُ إلى هوَّةِ الموت!!

العصفورُ والسلكُ (*)

ليوسف إدريس

يوسف إدريس علي (١٩٢٧-١٩٩١م) كاتب قصصي ومسرحي، وروائي مصري، له العديد من القصص والروايات والمسرحيات والمقالات.

«اختار أعلى بقعةٍ وحطّ. كانت سلكًا. مكانًا بين عمودين من سلك تليفون. مخالبه تشبثت برفق. هبَّت الريح وصفر السلك، تمايل، تشبَّث أكثر. هو لا يكف عن الحركة، والحركة عنده مفاجئة، فجأة تأتي. فجأة تحدث. فجأة تبلغ أقصى المدى. فجأة شقشق. فجأة تلفت. فجأة رفرف. فجأة صوصو. انتشى فجأة. طار. حام. حوم. حطَّ. تشبث. تلفَّت. على مقربة لمح الأليفة. رفرف. رفرفت. اقترب. اقتربت. صوصو. شقشقت. حك المنقار بالمنقار. حكَّت. أمال رأسه. أرقدت رأسها فوق رأسه. انتشى. نطّ. بالقفزة أحب بالقفزة هبط. بالنشوة تبرز. بصقة براز أبيض لوَّنت السلك.

السلك صدئ. قديم. غير سميك. يحمل في هذه اللحظة بالذات، وفي نفس الوقت، سبع مكالمات معًا. لا شيء في الظَّاهر يحدث، في الداخل تدور عوالم وأكوان. سلامات، احتجاجات، تحيَّات، صفقات، وداعات، استغاثات، أرض تُباع، بلاد تُباع، أصوات غلاظ، صوصوات رقيقات، تختلط الكلمات، تتمازج، تتوحَّد، كلها في النهاية تصير، ماديا، الكترونات. شحنات، متجانسات، متشابهات، كلمة الحب لها نفس شحنة البغض. كهارب الصدق هي كهارب الكذب، الصراحة كالنفاق، اللوعة كاللعنة، الليل كالصبح كالنهار، الحرام كالحلال، النِّضال كالخيانة كالكفاح، البطولات كالنذالات. كلمات.

(*) من المجموعة القصصية «بيت لحم».

شحنات. الكترونات متحفِّزات متحرِّكات. في ومضة بحركتها تتغيَّر مصائر، تجهَّز مشاريع، تنتهي وتبدأ حيوات واتجاهات. ومضات وتتم موافقات، وتُبرم صفقات. وتدبَّر مؤامرات، بالكلمات، بنفس الكلمات الطيِّبات.

والسلك قديم، صدئ، صامت، داكن، لا ينم مظهره عن شيء مما في داخله يعتمل ويدور، ولا يبدو منه أو عليه أقل تغيير، مستمر في وجوده الظاهر الطويل الممتدّ.

والعصفور متشبِّث بالسلك، بمخالبه البريئة يمسك بهذا كله ويحتويه، في ملكوته الخاص يحيا، لا يدري حتَّى بأن السلك سلك، بله بأن ما يسري فيه يسري فيه. إن هو إلا مكان عال للوقوف، وقوف كلما فرغ صبره منه، فجأة يتقافز، يرفرف، يشقشق، يطير، يحوم، بالقفزة يزاول مع وليفته الحب، وبنفس القفزة يهبط، وبالنشوة يصوصو، وبالنشوة خالي البال يتبرَّز، بصقة براز صغير بيضاء، على السلك، نفس السلك، كالزَّمن، كالصَّدأ تتراكم.

قصيدة «نفثة»(*)

للعقَّاد

عبَّاس محمود العقاد (١٨٨٩ـ١٩٦٤م) **أديب ومفكّر وصحفي وشاعر مصري، ترك عدة دواوين شعرية، والكثير من الكتب في النواحي الثقافية المتعددة.**

يقول:

ظمآن، ظمآن، لا صوب الغمام ... ولا عذب المُدام ولا الأنداء ترويني

حيران حيران لا نجم السماء ولا ... معالم الأرض في الغماء تهديني

يقظان يقظان.. لا طيب الرقاد يدا ... نينـي ولا سمر السمار يلهيني

غصان غصان لا الأوجاع تبليني ... ولا الكوارث والأشجان تبكيني

شعري دموعي وما بالشعر من عوض ... عن الدموع نفاها جفن محزون

يا سوء ما أبقت الدُّنيا لمغتبط ... على المدامع أجفانَ المساكين

هم أطلقوا الحزن فارتاحت جوانحهم ... وما استرحت بحزن فيَّ مدفون

أسوان، أسوان لا طب الأساة ولا ... سحر الرقاة من اللأواء يشفيني

سأمان، سأمان لا صفو الحياة ولا ... عجائب القدر المكنون تعنيني

أصاحب الدَّهر لا قلبٌ فيسعدني ... على الزمانِ ولا خلّ فيأسوني

يديك فامح ضنى يا موت في كبدي ... فلست تمحوه إلاَّ حين تمحوني

(*) من ديوان «وهج الظهيرة» للعقَّاد.

قصيدة «الْجَدَّة»(*)

لأحمد شوقي

أحمد شوقي ١٨٦٨-١٩٣٢م، شاعر مصري يعد من أعظم وأشهر شعراء العربية في العصر الحديث، يلقب بأمير الشعراء، بُويع أميرًا للشعراء عام ١٩٢٧م، خلَّف ديوانًا ضخمًا عُرف بديوان الشوقيَّات، وعدة مسرحيات منها: مصرع كليوباترا – مجنون ليلى – قمبيز – أميرة الأندلس. كما ألَّف الروايات مثل: الفرعون الأخير – عذراء الهند.

يقول:

وكـــلُّ شـــيءٍ ســـرَّني تـــذهب فيـــه مَـــذْهبي
إن غضِـــبَ الأَهـــلُ علـــيَّ كلُّهـــم لـــم تَغْضَـــبِ
مشـــى أَبـــي يومًـــا إِلـــيَّ مِشْـــيَةَ المـــؤدِّبِ
غَضْـــبَانَ قـــد هَـــدَّدَ بِالضَّـــرْبِ، وإِنْ لـــم يَضْـــرِبِ
فلـــم أَجِـــدْ لِـــي مِنْـــهُ غيـــرَ جَـــدَّتِي مـــن مَهْـــرَبِ
فجعَلَتنـــــي خَلْفَهـــــا أَنْجُـــــو بهـــــا، وأَخْتَبِـــــي
وَهْـــــيَ تَقُـــــولُ لأَبـــــي بِلهجـــــةِ المؤنِّـــــبِ:
ويـــحٌ لـــهُ! ويـــحٌ لِهـــ ذا الولـــدِ المُعَـــذَّبِ!
ألـــم تكـــن تصـــنعُ مـــا يَصـــنَعُ إذ أَنـــتَ صَـــبِي؟

(*) من ديوان «الشوقيات» لأحمد شوقي.

القرآن (*)

للشيخ محمد عبده

وُلِدَ الشيخ العالم الأديب محمد عبده في محلة نصر من إحدى قرى مديرية البحيرة، ودرس بالأزهر العلوم العقلية والأدبية والدينية، واتصل بجمال الدين الأفغاني، وكان أكثر الناس انتفاعًا به. ثم نفي عقيب الثورة العرابية، ولكنه عاد إلى مصر وتولَّى التدريس والقضاء في المحاكم الأهلية ثم الإفتاء مجتهدًا محقّقًا. وقد توفِّي سنة ١٣٢٣هـ بعد أن ترك آثارًا ثمينة.

يقول: «جاءنا الخبر المتواتر الذي لا تتطرَّق إليه الريبةُ أن النبي ﷺ كان في نشأته وأمّيته على الحال التي ذكرنا، وتواترت أخبار الأمم كافة على أنه جاء بكتاب قال: إنه أُنزِل عليه، وأن ذلك الكتاب هو القرآن المكتوبُ في المصاحفِ، المحفوظُ في صدورِ مَن عُنيَ بحفظه من المسلمين إلى اليوم.

كتاب حوَى من أخبار الأمم الماضية ما فيه مُعتَبَر للأجيال الحاضرة والمستقبَلة؛ نقَّب على الصحيح منها، وغادر الأباطيل التي ألحقتها الأوهام بها، ونبَّه على وجوه العِبْرة فيها، حكَى عن الأنبياء ما شاء الله أن يقصّ علينا مِن سِيرَهم، وما كان بينهم وبين أممهم، وبرَّأهم مما رماهم به أهل دينهم المعتقدون برسالاتهم. آخذَ العلماءَ من الملل المختلفةِ على ما أفسدوا من عقائدهم وما خلطوا في أحكامهم، وما حرَّفوا بالتأويل في كتبهم. وشرع للناس أحكامًا تنطبق على مصالحهم، وظهرت الفائدة في العمل بها والمحافظة عليها، وقام بها العدل، وانتظم بها شَمل الجماعة ما كانت عند(١) حدّ ما قرَّره، ثم عظمت المضرة في إهمالها والانحراف عنها أو البُعد بها عن الروحِ الذي أودعته، ففاقت بذلك جميع الشرائع الوضعِيَّة كما يتبيَّن للناظر في شرائع الأمم. ثم جاء

(*) من كتاب «المنتخب من أدب العرب»، الجزء الثاني.

(١) يريد: مادامت قائمة على حدوده، عاملة بأحكامه.

بعد ذلك بِحكَم ومواعظ وآداب تخشع لها القلوب، وتَهَش لاستقبالها العقول، وتتصرف وراءها الهمم، انصرافها في السبيلِ الأمَم.

نزل القرآن في عصر اتَّفق الرُّواة وتواترت الأخبار على أنه أرقى الأعصار عند العرب وأغزرُها مادة في الفصاحة، وأنه الممتاز بين جميع ما تقدَّمه بوفرة رجال البلاغة، وفُرسان الخطابة، وأنفس ما كانت العرب تتنافس فيه من ثمار العقل ونتائج الفِطَن والذكاء هو الغلب في القول، والسبق إلى إصابة مكان الوجدان من القلوب، ومقر الإذعان من العقول، وتفانيهم في المفاخرة بذلك مما لا يحتاج إلى الإطالة في بيانه.

تواتر الخبر كذلك بما كان منهم من الحرص على معارضة النبي ﷺ، والتماسهم الوسائلَ قريبَها وبعيدَها لإبطال دعواه، وتكذيبه في الإخبار عن الله، وإتيانهم في ذلك على مبلغ استطاعتهم، وكان فيهم الملوك الذين تحملهم عزة الملك على معاندته، والأمراء الذين يدعوهم السلطان إلى مناوأَته، والخطباء والشعراء والكتَّاب الذين يشمَخون بأنوفهم عن متابعته. وقد اشتدَّ جميع أولئك في مقاومته، وانهالوا بقواهم عليه استكبارًا عن الخضوع، وتمسكًا بما كانوا عليه من أديان آبائهم وحَميَّة لعقائدهم وعقائد أسلافهم. وهو مع ذلك يُخَطِّئُ آراءهم، ويسفِّه أحلامهم، ويحتقر أصنامهم، ويدعوهم إلى ما لم تَعهَده أيامهم، ولم تحقق لمثله أعلامهم، ولا حجة له بين يدي ذلك كله إلا تحدِّيهم بالإتيان بمثل أقصر سورة من ذلك الكتاب أو بعشر سُوَر من مثله. وكان في استطاعتهم أن يجمعوا إليه من العلماء والفصحاء والبُلغاء ما شاءوا ليأتوا بشيء من مثل ما أتى به ليُبطلوا الحجة ويُفحموا صاحب الدعوة.

جاءنا الخبر المتواتر أن مع طول زمن التحدِّي، ولحاج القوم في التعدِّي، أصيبوا بالعجز، ورجعوا بالخيبة وحقَّت للكتاب العزيز الكلمة العُليا على كل كلام».

المسرح(*)

لعلي مبارك

هو العالم المؤرخ والمؤلف المترجم، علي بن مبارك بن سليمان، وُلد بالدقهلية، درس بالمدارس المصريَّة والأوربيَّة، أسس دار العلوم، ودار الكتب، توفى سنة ١٣١١هـ.

أما المسرح فلا أظن أن حديثًا قيل في القرن التاسع، يرفع من قيمة رسالة المسرح في تربية الشعور القومي والخُلقي، يعلو على حديث علي مبارك. لقد عرض لواقع العروض المسرحية في عصره الممثلة في فرقة «أولاد رابية» وأوضح أنهم يأخذون بصفة عامة هيكل المسرح الأوروبي ووظيفته منهم «يدخلون في تقليد بعض أحوال حاضرة أو أمور ماضية يأخذون في تمثيلها وتصويرها وإبرازها في معرض المحسوس المشاهد، سواء كانت أمورًا اختراعية وهمية لا مستند لها سوى المخيلة، أم كانت أمورًا حقيقية حصلت في الواقع ونفس الأمر. وقد يكون لهذه التقليدات في بعض الأحيان نفع في الجملة غير أن هذا النفع القليل الذي يأتي عادة من التركيز على الشيء القبيح والسخرية منه تذهب فائدته مع عدم الالتزام بنص مكتوب والإغراق في الفحش والسخف والعيب مما تأباه النفوس وتمجُّه الطباع من الأفعال الفظيعة والأقوال القبيحة»، وهو نفس السلوك الذي يبتعد بكثير من العروض المسرحية في عصرنا عن أداء مهمتها الرفيعة التي تليق بأقدم الفنون.

وفي المقابل يقدم الجوانب الإيجابية في العرض المسرحي كما رآها في أوروبا، ومنها الالتزام بنص رفيع: «ومن آداب التِّياتر أن لا يقال في مجامعه

(*) من موضوع «قراءة في (علم الدين)» لعلي مبارك، من كتاب «في النقد التطبيقي»، للأستاذ الدكتور أحمد درويش.

إلا ما يؤخذ من تأليفات متفق على موافقتها لتهذيب الأخلاق والطباع والعادات... للمحافظة على ممدوحها والتباعد عن مذمومها.. لا يفعل ولا يقال ما يخل بالأدب والكمال». وعندما يتفق للمسرحية النص الرفيع المستوى والأداء الفنِّيّ المحكم فإنها يمكن أن ترتفع في «عَلَم الدين» إلى مستوى خادم الشريعة ومحقق مقاصدها، فلم يجدوا أحسن من التياتر للوصول إلى هذا المقصد، فإنه مع موافقته للأغراض واللذات والشهوات يهيئ النفس للتحلي بحسن الشمائل وصفات الكمال، والاستكثار منها والتمكن فيها، والتباعد عن ذميم الأخلاق وردئ الطباع، فهو بهذه الحالة كالخادم للشريعة التي تأمر بالخير وتنهى عن الشر. ومسألة خدمة الشريعة عنده تأتي من أن الأداء المسرحي يمكن أن يجسّد الأمور الغيبية في قالب حسِّيّ يزيد من ترغيب النفس أو ترهيبها.

لكن إطلاق عبارة بهذه القوة في القرن التاسع عشر، يبيِّن إلى أي حد كان يود علي مبارك أن يهيئ الطريق أمام تجربة الآخر لتبلغ الفائدة منها مداها دون جمود أو تخوُّف.

وهو ينطلق مركزًا على جانب من مهمة المسرح في العلاج الاجتماعي وتأديب النفوس، وتهذيب الأخلاق وتربية الأمَّة. وهو يضرب مثلاً بسيطرة أصحاب رأس المال على ضمائر بعض الحكام أو القضاة، وكيف أن الفن المسرحي يستطيع من خلال التجسيد والتهكم تعرية المؤامرات التي تتم في السرِّ والكتمان، وتجسيد الرذائل التي تختفي خلف ثياب التمويه والقذارة؛ ومن هنا يكون للفن سطوة أكبر تأثيرًا من سطوة القانون والحكم. وكما يقول علي مبارك: «لا يخفى أن أكثر أمور الناس وأحوالهم لا تدخل تحت حكم القوانين البشرية، وبذلك يخلص من عقوبتها كثير من سيئات الناس ويخلو عن المكافآت كثير من حسناتهم. ومن شأن التأثير أن يستحوذ على كل ذلك

فيدخله في باب وينظمه سلك لِما به، ويكشف عن قبح الشر وشؤمه لتنكف عنه نفوس أربابه ويظهر فضل الخير وينوّه به لتقوى فيه رغبة طلابه».

والمسرح من خلال هذا كله يشكل منبرًا رئيسيًّا من منابر تنوير الأُمة التي كان يبحث عنها علي مبارك لبثّ الثقافة للشعب كله وعدم اقتصارها على تلاميذ المدارس. إنه على حد تعبيره هو «مدرسة علمية لجميع الأحوال السرية ومصباح يستضاء به في الأحوال الباطنية». وانطلاقًا من هذا يمكن أن يشكل رافدًا ثقافيًّا لتقريب المستوى بين الطبقات وتدفق المعرفة من طائفة إلى أخرى. وما أدق تعبير علي مبارك الذي يستحق أن يكتب في واجهة مسرح الدولة الرئيسي على النحو الذي تكتب به عبارات مؤثرة معبِّرة عن الهدف مذكِّرة به في واجهة الكوميدي فرانسيز والأوبرا في باريس، والتي لاشك أن علي مبارك قرأها فصاغ على نحو منها هذه العبارة الدقيقة:

«التياتر قناة عذبة بين أفراد الأمَّة يسيل بها ماء العلم والمعرفة من الأعلى إلى الأدنى ومن العلماء والخواص إلى الجهَّال والعوام فتزداد العلائق التآنسية وتقوى الروابط الودادية وتعم المنفعة وتتم الفائدة، فإذا كان التياتر بهذه المثابة فهو أحسن المبتدعات البشرية وأجملها وأعظمها فائدة وأكملها».

في حبِّ الوطن (*)

لرفاعة الطهطاوي

وُلد بطهطا مدينة بسوهاج وربي بالأزهر وفرنسا وشغل مناصب تعليمية وسواها وألَّف عدَّة كتب. وهو على الجملة من أول بُناة النهضة الحديثة في العلم والأدب. وتوفي سنة ١٢٩٠هـ.

يقول: «إِنَّ حُبَّ الوَطَنِ مِنَ الإِيمَانِ؛ وَمِن طَبْعِ الأَحْرَارِ إِحْرَازُ الحَنِينِ إِلَى الأَوْطَان. ومَوْلِدُ الإِنْسَانِ عَلَى الدَّوَامِ مَحْبُوبٌ، ومَنْشَؤُهُ مَأْلُوفٌ لَهُ وَمَرْغُوبٌ. وَلأَرْضِكَ حُرْمَةُ وَطَنِهَا، كَمَا لِوَالِدَتكَ حَقٌّ لَبَنِها. وَالْكَرِيمُ لا يَجْفُو أَرْضًا بِهَا قَوَابِلُهُ(١)، ولا يَنْسَى دَارًا فِيهَا قَبَائِلُهُ. فَإِنِّي وَإِنْ أَلْبَسَتْنِي الْمَحْرُوسَةُ نِعَمًا، وَرَفَعَتْ لِي بَيْنَ أَمْثَالِي عَلَمًا(٢). وَكَانَتْ أُمَّ الْوَطَنِ الْعَامِّ، وَوَلِيَّةَ الآلاءِ والأَنْعَام. وَأُحِبُّها حُبًّا جَمًّا، لأَنَّهَا وَلِيَّةُ النَّعْما. وَقَضَيْتُ فِيهَا الأَرْبَعِينَ مُجَاورًا «كِرَامَ السَّجَايَا والْبُحُورَ الطَّوَامِيَا» فَلا زِلْتُ أَتَشَوَّقُ إِلَى وَطَنِي الخُصُوصِيِّ وَأَتَشَوَّفُ(٣)، وَأَتَطَلَّعُ إِلَى أَخْبَارِهِ السَّارَّةِ وَأَتَعَرَّفُ. ولا أُسَاوِي بِطَهْطَا الخِصْبَةِ سِوَاهَا، فِي القِيَامِ بِالحُقُوقِ وإِكْرَامِ مَثْوَاهَا.

مَنَازِلٌ لَسْتُ أَهْوَى غَيْرَهَا سُقِيَتْ حَيًّا يَعُمُّ وَخُصَّتْ بِالتَّحِيَّاتِ(٤)

(*) من كتاب «المنتخب من أدب العرب»، الجزء الأول.

(١) القوابل: جمع قابلة وهي المرأة التي تتلقى الولد عند ولادته.

(٢) العلم بفتحتين: الراية. يريد أنها أعظمت شأنه وأكرمت محله.

(٣) تشوّف إلى الشيء: تطلَّع إليه.

(٤) الحيا: المطر. يدعو لها بالخصب.

وَأَمْنَحُها زَمَنًا بَعْدَ زَمَنٍ الزِّيَارَةَ، وَأَجَدِّدُ فِيهَا مِن هِبَات الحُكُومَةِ العِمَارَةَ. وَأَبْذُلُ فِي مَحبَّتِهَا النَّفِيسَ لِتَحْصِيلِ الأَرَاضِي لِلزَّرْعِ وَالْغَرْسِ، وَأَفْتَخِرُ بِهَا كَمَا افْتَخَرَ عِصَامٌ بِالنَّفْسِ(١). وَأُنْشِدُ قَوْلَ الْحَافِظِ كَمَالِ الدِّينِ الأُدْفُوِيّ:

أَحِنُّ إِلَى أَرْضِ الصَّعِيدِ وَأَهْلِهِ وَيَزْدَادُ وَجْدِي حِينَ تَبْدُو قِبَابُهَا

وَتَذْكُرُهَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ مُهْجَتِي فَتَجْرِي دُمُوعًا إِذْ يَزِيدُ الْتهَابُهَا»

---

(١) يشير إلى قول الشاعر:

نفس عصام سودت عصاما وعلمته الكرَّ والإقداما

وصيرته ملكًا هُماما

مدينة القاهرة (مصر) (*)

لابن بطوطة

ابن بطوطة هو محمد بن عبد الله اللواتي، وابن بطوطة شهرة اشتهر بها هو وعائلته، وُلد سنة ٧٠٣هـ، في مدينة طنجة شمال المغرب، ولقد زار مصر في القرن الثامن الهجري، وقدَّم لنا صورة لها آنذاك.

يقول: «ثم وصلت إلى مدينة مصر، وهي أم البلاد، وقرارة فرعون ذي الأوتاد، ذات الأقاليم العريضة، والبلاد الأريضة المتناهية في كثرة العمارة، المتناهية بالحسن والنضارة، ومجمع الوارد والصادر، ومحطّ رحل الضعيف والقادر. وبها ما شئت من عالم، وجاهل، وجاد، وهازل، وحليم، وسفيه، ووضيع، ونبيه، وشريف، ومشروف، ومنكر، ومعروف. تموج موج البحر بسكَّانها، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وإمكانها. شبابها يجد على طول العهد، وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد. قهرت قاهرتها الأمم، وتمكنت ملوكها نواصي العرب والعجم. ولها خصوصية النيل الذي أجل خطرها، وأغناها عن أن يستمد القطر قطرها. وأرضها مسيرة شهر لمجد السير، كريمة التربة مؤنسة لذي الغربة.

ويقال إن بمصر من السائقين على الجمال اثني عشر ألف سقاء، وأن بها ثلاثين ألف مكار، وأن بنيلها من المراكب ستة وثلاثين ألفًا للسلطان والرعية، تمر صاعدة إلى الصعيد، ومنحدرة إلى الإسكندرية ودمياط، بأنواع الخيرات والمرافق. وعلى ضفة النيل مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة. وهو مكان النزهة والتفرج، وبه البساتين الكثيرة الحسنة. وأهل مصر

(*) من كتاب «رحلة ابن بطوطة».

ذوو طرب وسرور ولهو. شاهدت بها مرة فرجة بسبب برء الملك الناصر من كسر أصاب يده. فزيّن كل أهل سوق سوقهم وعلقوا بحوانيتهم الحلل والحلي وثياب الحرير، وبقوا على ذلك أيامًا.

ومسجد عمرو بن العاص مسجد شريف، كبير القدر، شهير الذكر، تقام فيه الجمعة. والطريق يعترضه من شرق إلى غرب. وبشرقه الزاوية حيث كان يدرس الإمام أبو عبد الله الشافعي. وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها. وأما المارستان الذي بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون، فيعجز الواصف عن محاسنه وقد أعدَّ فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر، يذكر أن مجباه ألف دينار كل يوم.

وأما الزوايا فكثيرة، وهم يسمونها الخوانق، واحدتها خانقة. والأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا، وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء، وأكثرهم الأعاجم، وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوُّف. ولكل زاوية شيخ وحارس. وترتيب أمورهم عجيب. ومن عوائدهم في الطعام، أنه يأتي خديم الزاوية إلى الفقراء صباحًا فيعين له كل واحد ما يشتهيه من الطعام فإذا اجتمعوا للأكل جعلوا لكل إنسان خبزة ومرقة في إناء على حدة، لا يشاركه فيه أحد، وطعامهم مرتان في اليوم. ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف، ومرتب شهري من ثلاثين درهمًا للواحد في الشهر إلى عشرين. ولهم الحلاوة من السكر كل ليلة جمعة، والصابون لغسل أثوابهم، والأجرة لدخول الحمام، والزيت للاستصباح. وهم أعزاب، وللمتزوجين زوايا على حدة، ومن المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس، والمبيت بالزاوية، واجتماعهم بقبة داخل الزاوية. ومن عوائدهم أن يجلس كل واحد منهم على سجادة مختصة به، وإذا صلُّوا الصبح قرأوا سورة الفتح، وسورة الملك، وسورة عمَّ، ثم يؤتى بنسخ من القرآن العظيم، مجزَّأة، فيأخذ كل فقير جزءًا،

ويختمون القرآن، ويذكرون، ثم يقرأ القرَّاء على عادة أهل المشرق، ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر. ومن عوائدهم مع القادم أنه يأتي باب الزاوية فيقف به مشدود الوسط، وعلى كاهله سجادة، وبيمناه العكاز، وبيسراه الإبريق، فيعلم البواب خديم الزاوية بمكانه، فيخرج إليه ويسأله من أي البلاد أتى، وبأي زاوية نزل في طريقه، ومن شيخه، فإذا عرف صحة قوله، أدخله الزاوية، وفرش له سجادته في موضع يليق به، وأراه موضع الطهارة، فيجدد الوضوء، ويأتي إلى سجادته، فيحل وسطه، ويصلِّ ركعتين، ويصافح الشيخ ومن حضر، ويقعد معهم. ومن عوائدهم أنهم إذا كان يوم الجمعة أخذ الخادم جميع سجاجيدهم، فيذهب بها إلى المسجد ويفرشها لهم هنالك، ويخرجون مجتمعين ومعهم شيخهم، فيأتون المسجد ويصلي كل واحد على سجادته، فإذا فرغوا من الصلاة، قرءوا القرآن على عادتهم، ثم ينصرفون مجتمعين إلى الزاوية ومعهم شيخهم.

ولمصر القرافة العظيمة الشأن في التبرُّك بها، وقد جاء في فضلها أثر أخرجه القرطبي وغيره، لأنها من جملة الجبل المقطَّم الذي وعد الله أن يكون روضة من رياض الجنة. وهم يبنون بالقرافة القباب الحسنة ويجعلون عليها الحيطان فتكون كالدُّور، ويبنون بها البيوت. ويرتبون القرَّاء، ويقرءون ليلاً ونهارًا بالأصوات الحسان. ومنهم من يبني الزاوية والمدرسة إلى جانب التربة. ويخرجون كل ليلة جمعة إلى البيت بأولادهم ونسائهم ويطوفون على الأسواق بصنوف المآكل. ومن المزارات الشريفة المشهد المقدَّس العظيم الشأن حيث رأس الحسين بن علي (، وعليه رباط ضخم عجيب البناء على أبوابه، وحلق الفضة وصفائحها أيضًا كذلك، وهو موفى الحق من الإجلال والتعظيم. ومنها تربة السيدة نفيسة بنت الحسن الأنور بن علي بن الحسين بن علي *. وكانت مجابة الدعوة، مجتهدة في العبادة. وهذه التربة أنيقة البناء، مشرقة الضياء،

عليها رباط مقصود. ومنها تربة الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي ﷺ، وعليها رباط كبير، ولها جراية ضخمة، وبها القبة الشهيرة، البديعة الإتقان، العجيبة البنيان، المتناهية الإحكام، المفرطة السمو، وسعتها أزيد من ثلاثين ذراعًا. وبقرافة مصر من قبور العلماء والصالحين ما لا يضبطه الحصر. وبها عدد جمّ من الصحابة وصدور السلف والخلف رضي الله تعالى عنهم، مثل عبد الرحمن بن القاسم، وأشهب بن عبد العزيز، وأصبغ بن الفرج، وابني عبد الحكيم، أبي القاسم بن شعبان، وأبي محمد عبد الوهاب. ولكن ليس لهم بها اشتهار، ولا يعرفهم إلاَّ من له بهم عناية. والشافعي ﷺ ساعده الجد في نفسه وأتباعه وأصحابه، في حياته ومماته، فظهر من أمره مصداق قوله:

الجد يُدني كل أمر شاسع والجد يفتح كل باب مغلق

ونيل مصر يفضُل أنهار الأرض عذوبة مذاق، واتساع قطر، وعظم منفعة، والمدن والقرى بضفتيه منتظمة، ليس في المعمور مثلها. ولا يعلم نهر يزرع عليه ما يزرع على النيل. وليس في الأرض نهر يسمى بحرًا غيره. قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾[1]، فسمَّاه يمًّا وهو البحر. وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ وصل إليه ليلة الإسراء إلى سدرة المنتهى فإذا في أصلها أربعة أنهار، نهران ظاهران ونهران باطنان، فسأل عنها جبريل عليه السلام، فقال: «أما الباطنان ففي الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات». وفي الحديث أيضًا النيل والفرات وسيحون وجيحون كل من أنهار الجنة. ومجرى النيل من الجنوب إلى الشمال خلافًا لجميع الأنهار. ومن عجائبه أن ابتداء زيادته في شدة الحر عند نقص الأنهار وجفوفها، وابتداء نقصه حين زيادة

(١) سورة القصص، الآية ٧.

الأنهر وفيضها. ونهر السند مثله في ذلك وسيأتي ذكره. وأول ابتداء زيادته في حزيران وهو يونيه. فإذا بلغت زيادته ستة عشر ذراعًا تم خراج السلطان، فإذا زاد ذراعًا كان الخصب في العام والصلاح التام. فإن بلغ ثمانية عشر ذراعًا أضرَّ بالضياع، وأعقب الوباء. وإن نقص ذراعًا عن ستة عشر نقص خراج السلطان. وإن نقص ذراعين استسقى الناس، وكان الضرر الشديد. والنيل أحد أنهار الدنيا الخمسة الكبار، وهي النيل والفرات والدجلة وسيحون وجيحون، وتماثلها أنهار خمسة أيضًا: نهر السند، ويسمى بنج اب، ونهر الهند، ويسمى الكنك، وإليه تحج الهنود، وإذا أحرقوا أمواتهم رموا برمادهم فيه، ويقولون هو من الجنة، ونهر الجون بالهند أيضًا، ونهر اتل بصحراء قفجق وعلى ساحله مدينة السرا، ونهر السرو بأرض الخطا، وعلى ضفته مدينة خان بالق، ومنها ينحدر إلى مدينة الخنسا، ثم إلى مدينة الزيتون بأرض الصين. وسيذكر ذلك كله في مواضعه إن شاء الله. والنيل يفترق بعد مسافة من مصر على ثلاثة أقسام. ولا يعبر نهر منها إلاَّ في السفن شتاءً وصيفًا. وأهل كل بلد لهم خلجان تخرج من النيل فإذا مد أترعها وفاضت على المزارع.

(الأهرام والبرابي) من العجائب المذكورة على مرِّ الدهور. وللناس فيها كلام كثير وخوض في شأنها، وأولية بنائها. ويزعمون أن العلوم التي ظهرت قبل الطوفان أخذت من هرمس الأوَّل الساكن بصعيد مصر الأعلى، ويسمى الخنوج، وهو إدريس عليه السلام، وأنه أوَّل من تكلَّم في الحركات الفلكية، والجواهر العلوية، وأوَّل من بنى الهياكل، ومجَّد الله تعالى. وفيها أنه أنذر الناس بالطوفان، وخاف ذهاب العلم، ودروس الصنائع، فبنى الأهرام، والبرابي، وصوَّر فيها جميع الصنائع والآلات، ورسم العلوم فيها لتبقى مخلَّدة. ويقال إن

دار العلم والملك بمصر مدينة منوف[١] وهي على بريد من الفسطاط. فلما بُنيت الإسكندرية انتقل الناس إليها وصارت دار العلم والمُلك إلى أن أتى الإسلام. فاختطَّ عمرو بن العاص ﷺ مدينة الفسطاط، فهي قاعدة مصر إلى هذا العهد. والأهرام بناءٌ بالحجر الصلد المنحوت متناهي السموّ، مستدير، متَّسع الأسفل، ضيِّق الأعلى، كالشكل المخروط. ولا أبواب لها، ولا تعلم كيفية بنائها. ومما يُذكر في شأنها أن ملكًا من ملوك مصر قبل الطوفان رأى رؤيا هالته، وأوجبت عنده أنه بنى تلك الأهرام بالجانب الغربي من النيل، لتكون مستودعًا للعلوم، ولجثث الملوك، وأنه سأل المنجمين هل يفتح منها موضع، فأخبروه أنها تفتح من الجانب الشمالي، وعيَّنوا له الموضع الذي تفتح منه، ومبلغ الإنفاق في فتحه، فأمر أن يجعل بذلك الموضع من المال قدر ما أخبروه أنه ينفق في فتحه. واشتدَّ في البناء فأتمَّه في ستين سنة. وكتب عليها: «بنينا هذه الأهرام في ستين سنة، فليهدمها من يريد ذلك في ستمائة سنة، فإن الهدم أيسر من البقاء». فلما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين المأمون أراد هدمها. فأشار عليه بعض مشايخ مصر أن لا يفعل. فلج في ذلك، وأمر أن تفتح من الجانب الشمالي. فكانوا يوقدون عليها النار، ثم يرشونها بالخل، ويرمونها بالمنجنيق، حتى فتحت الثلمة التي بها إلى اليوم. ووجدوا بإزاء النقب مالاً أمر أمير المؤمنين بوزنه فحصر ما أنفق في النقب فوجدها سواء. فطال عجبه من ذلك. ووجدوا عرض الحائط عشرين ذراعًا».

---

(١) كانت تسمى ممفس.

جارية ومملوك (*)

لأحمد بن يوسف الكاتب

أبو جعفر أحمد بن أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم، يُعرف بابن الدَّاية، من فضلاء أهل مصر ومعروفيهم، وممَّن لهم علوم كثيرة في الأدب والطب والحساب، توفي سنة ٣٤٠هـ.

«حدَّثني أبو حَبِيب المَقَّرِيُّ، قال: «ضاقتْ أَحْوالي، فلم يبقَ لي إلاَّ جارية أُحبُّها، ومنزِلاً أسكنُه. فبعتُ المنزلَ بألف دينار، وخرجتُ إلى مكة بالجارية، فقلت لها: «يكون هذا المال في وسطك» فكانت إذا نزلت في منزلٍ حَفَرتْ في خيْمتها حفِيرةً وأودعت المالَ فيها وطَمَّتها. فإذا نُودِي بالرحيل أثارته وشَدَّتْه في وَسَطها.

قال: فاتَّفق أنْ رَحلنا عن مَنْهَلٍ ونسيَتِ المالَ في الحفْرة، فأخبرتْني الجاريةُ بذلك، قال: فحارَ فِكْري، وطاشَ رُوعي، ولم أدرِ ما أعمل. ودخلنا مكَّة، فحدثَتْني نفسي بِبَيْعها فلم يُطِعني قلبي. فلمَّا رَجَعنا ونزلنا المَنْهل الذي خلَّفت فيه الكِيسَ، رأيت صحراء، وغلامٌ على رابية يرعى غُنيماتٍ له، وأقبلتُ أدور وأنظُر إلى الأرض، فقال لي: «وَيْحَك! ما تطلُب؟»، قلت: «شيئًا أوْدعته أرضَ هذا المَنْهَل»، فقال لي: «صِفْه لي»، قلت: «كيسٌ أحمرُ فيه مال»، فقال: «ومَالِيَ فيه إن دَلَلْتك عليه؟»، قلت: «نصفُه!»، قال: «ها هو ذاك في الرابية». فلمَّا رَأى تحيُّري فيه، قام حتى أخرجه ووضَعه بين يديّ، فحمدت الله، وقسمت الكِيسَ قسمين وخيَّرته أحَدَهما، فقال لي: «إنِّي أرى قِسْمِي منه كثيرًا، وأنا أكتفي بنصف أحَد القسمين، فقسمته بقسمين»، فقال: «تَقْسِمه أيضًا بقسمين»، ففعلتُ، فقال: «ما أعجب

(*) من كتاب «المكافأة وحُسن العُقبى» لأحمد بن يوسف الكاتب.

أمرك! أتْرُكُه كله حرامًا، ونصفَه حَلاَلاً، وآخذ منه شيئًا! هذا مالا يكون، انصرف بمالِك». فقلت له: «يا غلام! أنت حرٌّ أو مملوك؟»، فقال: «مملوك»، فقلت: «لمن؟»، فقال: «لشيخ هذا الحيّ».

فدخلت الحيّ فألفيت الشيخَ والنَّاسُ عندَه، فقلت له: «رأيتُ غلامًا في المنهل يرعى غُنَيْماتٍ وأسألك أن تَبيعنيه»، فقال: «اشتريتُه بعَشرة دنانير»، فقلت: «أنا آخُذُه بعشرين»، فقال: «إن لم أبِعْه؟»، قلت: «أُعطيك به ثلاثين دينارًا»، فقال لمن حوله: «أمَا تسمعون ما يقول؟ وما يحمِلُك على أن تبذُل به هذا الثَّمن؟»، فقلتُ: «جَمعَ عليَّ ضالَّةً، فنَذَرْتُ أَنْ أُعْتِقه وأبتاعَ الغنمَ [التي] يرعاها له، وأُمِلِّكهُ إيَّاها»، فقال: «نَذَرْتَ أن تفعل به هذا لَفَعْلةٍ واحدةٍ من الجميل أوْلاكَهَا[1]، ولنا في كل يوم منذ ملكناهُ حسنة تقتضي أكثرَ مما نأتيه له؟ وأنا أُشْهِد الجماعةَ أنه حرٌّ لوجه الله، وأنَّ ما يرعاه له».

فانصرفت عن الشيخ وقد بلَغ بي ما أمَّلتُه له».

---

(١) أولاه الجميل: فعله ابتداءً من غير مكافأة على جميلٍ سبق.

المقامة البغدادية(*)

للحريري

أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري، منسوب إلى صناعة الحرير أو بيعه، وُلد سنة ٤٤٦ هـ بقرية المشان قرب البصرة، وتوفي سنة ٥١٦هـ.

يقول: «روى الحارِثُ بن هَمَّام قال: نَدَوْتُ(١) بِضَوَاحِي(٢) الزَّوْراء(٣)، مَعَ مَشْيَخَةٍ مِنَ الشُّعَراء(٤)، لا يَعْلَقُ(٥) لَهُمْ مُبارٍ(٦) بِغُبَارٍ، ولا يَجْرِي مَعَهُمْ ممار(٧) في مِضْمار(٨)، فأَفَضْنا(٩) في حَدِيثٍ يَفْضحُ الأَزْهَار(١٠)، إلى أن نَصَفْنا النَّهَار(١١)، فلمَّا غاضَ(١٢) دَرُّ الأَفْكار(١٣)، وصَبَتِ(١٤) النُّفُوسُ إلى الأَوْكار(١٥)؛ لمَحْنا عَجُوزًا تُقْبِلُ مِنَ

(*) من كتاب «مقامات الحريري».
(١) أقمت بالنادي وهو المجلس.
(٢) براري ونواحي.
(٣) اسم دجلة بغداد.
(٤) جماعة من الشيوخ.
(٥) يلصق.
(٦) معارض.
(٧) من المماراة وهي المجادلة.
(٨) ميدان السباق.
(٩) فشرعنا.
(١٠) يعني أنه يفوق الأزهار في الارتياح إليه.
(١١) أي: بلغنا نصفه.
(١٢) أي: غار ونقص.
(١٣) أي: ما تنتجه القرائح من حلو الحديث.
(١٤) أي: مالت.
(١٥) جمع وكر وهو بيت الطائر.

البُعْـد، وتُحْضِـرُ إِحْضَـارَ الجُـرْد[١]، وقَـدِ اسْـتَتْلَتْ[٢] صِـبْيَةً[٣] أَنْحَـفَ مِـنَ المغَازِل[٤]، وأضْعَفَ مِنَ الجَوَازِل[٥]، فمَا كَذَّبَتْ إِذ رَأَتْنا، أَنْ عَرَتنا[٦]، حتَّى إِذَا ما حَضَرَتنا، قالَت: حَيَّا الله المَعَارِفَ[٧]، وإِنْ لَمْ يَكُنَّ[٨] مَعَارِفَ؛ اعْلَمُوا يا مآلَ الآمِـل[٩]، وثِمَـالَ الأَرَامِـل[١٠]؛ أنِّـي مِـن سَـرَوَاتِ[١١] القَبائِـل، وسَـرِيَّات[١٢] العَقائـل[١٣]، لـم يَـزلْ أَهْلِـي وبَعْلـي يَحُلُّـونَ الصَّـدْر[١٤]، ويَسِـيرونَ القَلْـب[١٥]، ويُمْطونَ الظَّهر[١٦]، ويُولُونَ اليد[١٧]: فلمَّا أَرْدَى[١٨] الدَّهْرُ الأَعْضَاد[١٩]، وفَجع

---

(١) أي: تعدو عدو الجرد وهي الخيل القصار الشعور.

(٢) أي: استتبعت.

(٣) جمع صبي.

(٤) جمع مغزل.

(٥) جمع جوزل وهو فرخ الحمامة.

(٦) أي: قصدتنا.

(٧) جمع معروف وهو الوجه أي حيّي الله الوجوه والسادة.

(٨) وفي نسخة لم يكونوا.

(٩) أي: ملجأ الراجي.

(١٠)الثمال بالكسر من يعوّل عليه. والأرامل: المساكين من رجال ونساء.

(١١)جمع سراة جمع سري وهو السخي ذو المروءة.

(١٢)جمع سرية وهي الرفيعة القدر.

(١٣)جمع عقيلة وهي الكريمة الجيدة.

(١٤)الصدر: أشرف المجلس.

(١٥)القلب: المراد قلب العسكر أي وسط الموكب.

(١٦)أي: يركبون الناس الإبل التي تحمل القوم.

(١٧)أي: يعطون النعمة.

(١٨)أردى: أهلك.

(١٩)الأعضاد: الأعوان.

بـالجَوارِح[١] الأَكْبـاد، وانْقَلَـبَ[٢] ظَهْرًا لِـبَطْن[٣] نَبَـا النَّـاظِر[٤]؛ وجَفـا الحَاجـب[٥] وذَهَبَتِ العَيْن[٦] وَفُقِدَت الرَّاحَـة[٧]، وَصَـلَدَ الزَّنْـد[٨]، ووهَنَـتِ اليَمِـين[٩]، وضَـاعَ اليَسَار[١٠]، وبَانَتِ المَرَافِق[١١]، ولم يَبْقَ لنا ثَنِيَّةٌ ولا نـاب[١٢]: فَمُذْ اغْبَرَّ العَيْشُ الأَخْضَـر[١٣]، وازْوَرَّ[١٤] المَحْبُـوبُ الأَصْـفَر[١٥]، اسْـوَدَّ يَـوْمِي الأَبْـيَض، وابْيَضَّ[١٦] فَوْدِي[١٧] الأَسْوَد حتى رَثَى لِي[١٨] العَدُوُّ الأَزْرَق[١٩]، فحَبَّذَا المَوْتُ

---

(١) جوارح الإنسان: أعضاؤه التي يكتسب بها يريد الأولاد والخدم.

(٢) انقلب: أي الدهر.

(٣) كناية عن تحول الأمر.

(٤) نبا الناظر: تجافى وتباعد. والناظر: المراد به من كان ينظر إليهم نظر إجلال وإعظام.

(٥) الحاجب: الخادم.

(٦) الذهب.

(٧) ضد التعب.

(٨) كناية عن الخيبة.

(٩) وهنت اليمين: ضعفت القوَّة.

(١٠)ضاع اليسار: أي فارقت.

(١١)أي: ما يرتفق به.

(١٢)الثنية: هي الفتية من النوق والناب المسنَّة.

(١٣)كناية عن المعيشة الطيبة.

(١٤)ازورَّ: مال وانقبض.

(١٥)المحبوب الأصفر: الذهب.

(١٦)ابيضَّ: شاب.

(١٧)فودِي: هو جانب الرأس.

(١٨)أي: رحمني.

(١٩)أي: شديد العداوة.

الأَحْمَـــر[١]، وتِلْـوي[٢] مَـنْ تَـرَوْنَ عَيْنُـهُ فُـرارُه[٣]، وتَرْجُمانُـه[٤] اصْـفرارُه، قُصْـوَى بِغْيَـةِ أَحَـدِهم ثُـرْدَة[٥]، وقُصَـارَى أُمنِيَّتِـه بُـرْدَة[٦]؛ وكُنْتُ آلَيْتُ[٧] أَنْ لا أَبْذُلَ الحُرَّ[٨] إلاَّ لِلحُرِّ[٩]، ولوْ أَنِّي مُتُّ مِنَ الضُّرِّ؛ وقَدْ نَاجَتني[١٠] القَرُونَة[١١]؛ بِأَن تُوجَدَ عِنْدَكُمُ المَعُونَة[١٢]، وآذَنَتْنِـي[١٣] فِرَاسَـةُ الحوْبَـاء[١٤]، بِـأَنَّكُمْ يَنَـابِيعُ[١٥] الحِبـاء[١٦]، فَنَضَّرَ[١٧] الله أَمْرأً أَبَرَّ قَسَمِي[١٨]،

---

(١) أي: الشديد وهو أن يقتل بالسيف، وقيل: هو الموت فجأة.

(٢) تِلوي: تابعي.

(٣) مثل يضرب لمن يدل ظاهره على باطنه فيغني عن الاختبار.

(٤) ترجمانه: تبيانه أي مبينه.

(٥) ثُرْدَة: أي نهاية ما يبتغيه أحدهم ثريد.

(٦) بُرْدة: أي منتهى ما يتمناه كساء يلبسه.

(٧) أي: حلفت.

(٨) أبذل الحُرَّ: ماء الوجه.

(٩) للحر: للكريم.

(١٠)ناجتني: حدثتني.

(١١)القرونة: هي النفس.

(١٢)المعونة: الإعانة.

(١٣)آذنتني: أعلمتني.

(١٤)أي: حدس النفس.

(١٥)ينابيع: جمع ينبوع وهو العين الجارية.

(١٦)الحباء: العطاء.

(١٧)فنضر: أي جعله نضرًا أي حسنًا بهجًا.

(١٨)أبرَّ قسمي: أي حفظ حلفي من الحنث.

وصَدَّقَ تَوَسُّمِي[١]، ونَظَرَ إِليَّ بِعَيْنٍ يُقْذِيها[٢] الجُمود[٣]، ويُقَذِّيها[٤] الجُود[٥].

قال الحارثُ بن همَّامٍ: فَهمنا لِبَرَاعَةِ عِبارَتها[٦]، ومُلَحِ اسْتِعارَتها، وقُلنا لها: قد فَتَنَ[٧] كلامُكِ فَكَيْفَ إلحامُكِ[٨]، فقالَتْ: أُفَجِّرُ الصَّخْرَ[٩]، ولا فَخْرَ؛ فَقُلْنَا: إنْ جَعَلْتِنا مِنْ رُواتِكِ[١٠]، لم نَبْخَلْ بِمَواساتِك، فقالت: لأُرِيَنَّكُمْ[١١] أَوَّلاً شِعاري[١٢]، ثُمَّ لأُرَوِّيَنَّكُمْ[١٣] أَشْعَارِي، فأَبرَزَتْ رُدْنَ دِرْعِ دَريسٍ[١٤]، وبَرزَتْ[١٥] بِرْزَةَ عَجُوزٍ دَرْدَبِيس[١]، وأَنْشَأَتْ تَقُولُ: تَقُولُ:

---

(١) صدَّق توسمي: أي ما توسمته فيكم وظننته.

(٢) بعين يقذيها: أي يلقي فيها القذى وهو ما يسقط في العين.

(٣) الجمود: يريد به البخل.

(٤) يقذِّيها: بتشديد الذال أي يزيل قذاها.

(٥) الجود: الكرم.

(٦) أي: هامت قلوبنا وتحيَّرت لفصاحة كلامها ومحاسن نظامها.

(٧) فتن: من الفتنة أي فتننا.

(٨) أي: نظمك للشعر؛ يقال ألحم الشعر: أي نظمه مثل: حاكه.

(٩) كناية عن الإتيان بالبديع البليغ العذب من الشعر.

(١٠)أي: الراوين لشعرك.

(١١)من الرؤية.

(١٢)أي: ثوبي الذي يلي جسدي.

(١٣)من الرواية يقال: روّاه إذا جعله راويًا عنه.

(١٤)أي: فأظهرت كمَّ قميص بال.

(١٥)برزت: ظهرت.

أَشْكُو إِلَى اللهِ اشْتِكَاءَ المَرِيضِ ... رَيْبَ الزَّمانِ المتَعَدِّي البَغِيضْ[٢]

يَا قَوْم إِنِّي مِنْ أُنَاسٍ غَنُوْا ... دَهْرًا وجَفْنُ الدَّهْرِ عَنْهُمْ غَضِيضْ[٣]

فخَارُهم لَيْس لَهُ دَافِعٌ ... وصِيتُهُمْ بَيْنَ الوَرَى مُسْتَفِيضْ[٤]

كانوا إِذَا مَا نُجْعَةً أعْوَزَتْ ... فِي السَّنَة الشَّهْبَاءِ رَوْضًا أرِيضْ[٥]

تُشَبُّ للسَّارِينَ نِيرانُهُمْ ... ويُطْعِمُون الضَّيْفَ لَحْمًا غَرِيضْ[٦]

مَا بَاتَ جَارٌ لَهُمْ سَاغِبًا ... وَلاَ لِرَوْعٍ قَال: حَالَ الجَرِيضْ[٧]

فَغَيَّضَتْ مِنْهُمْ صُرُوفُ الرَّدَى ... بِحَارَ جودٍ لم نَخلْها تَغِيضْ[٨]

وَأُودِعَتْ مِنْهُمُ بُطُونُ الثَّرى ... أُسْدَ التَّحَامِي وأُسَاةَ المَرِيضْ[٩]

---

(١) دردبيس: أي مسنة ذات مكر ودهاء.

(٢) الزمان: أي جوره كما في بعض النسخ. المتعدي: متجاوز الحد. البغيض: ضد الحبيب.

(٣) غنوا: أقاموا وعاشوا. غضيض: أي مغضوض بمعنى مكفوف كناية عن كون الدَّهر لم يصبهم بمصائبه.

(٤) وصيتهم: ما يذكر وينشر من ذكرهم الحميد. مستفيض: شائع ذائع.

(٥) نجعة: مرعى خصب. أعوزت: أحوجت. والإعواز: الفقر. الشهباء: هي التي لا خضرة فيها أو لا مطر. روضًا: جمع روضة وهي البقاع التي يكون فيها أنواع الزهر والنوَّر. أريض: حسن النبات.

(٦) تشب: توقد. للسارين: جمع سار وهو من يسري ليلاً. غريض: طريّ.

(٧) ساغبا: جائعًا. لروع: لفزع وخوف. الجريض: الغصة.

(٨) فغيَّضت: فنقصت وأفنت. الرُّدى: الهلاك. نخلها: نظنها. تغيض: تنقص.

(٩) الثرى: كناية عن القبور. التحامي: الذين يتحامى فيهم. أساة: جمع آس وهو الطبيب.

فَمَحْمِلِـــي بَعْـــدَ المَطَايـــا المَطـــا ... وَمَـوْطِنِي بَعْـدَ اليَفَـاعِ الحَضِـيضْ(١)

وأفْرُخِـــي مـــا تَـــأْتَلِي تَشْـــتَكِي ... بُؤْسًـا لَـهُ فِـي كـلِّ يَـوْمٍ وَمِـيضْ(٢)

إِذَا دَعـــا القَانِـــتُ فِـــي لَيْلِـــهِ ... مَـــوْلاَهُ نَـــادَوْهُ بِـــدَمْعٍ يَفِـــيضْ(٣)

يَـــا رَازِقَ النَّعَّـــابِ فِـــي عُشِّـــهِ ... وَجَـابِرَ العَظْـمِ الكَسِـيرِ المَهِـيضْ(٤)

أَتِـــحْ لَنَـــا اللَّهُـــمَّ مَـــنْ عِرْضُـــهُ ... مِـنْ دَنَـسِ الـذَّمِّ نَقِـيٌّ رَحِـيضْ(٥)

يُطْفِـيءُ نَـار الجُـوعِ عَنَّـا وَلَـوْ ... بِمَذْقَـةٍ مِـنْ حَـازِرٍ أَوْ مَخِـيضْ(٦)

فَهَـل فَتًـى يَكْشِـفُ مَـا نَـابَهُمْ ... ويَغْـنَمُ الشُّـكْرَ الطَّوِيـلَ العَـرِيضْ(٧)

فَوَالـــذِي تَعْنُـــو النَّوَاصِـــي لَـــهُ ... يَـوْمَ وُجُـوهُ الجَمْـعِ سُـودٌ وبِـيضْ(٨)

لَـــوْلاهُمُ لَـــم تَبْـــدُ لِـــي صَـــفْحَة ... وَلاَ تَصَـــدَّيْتُ لِـــنَظْمِ القَـــرِيضْ(٩)

---

(١) محملي: موضع حملي. المطايا: جمع مطية وهي الناقة التي تركب. المطا: هو الظهر، تعني أن أمتعتها بعد أن كانت تحمل على الإبل صارت تحمل على ظهرها. اليفاع: العالي من الأرض. الحضيض: ما انخفض من الأرض عند منقطع الجبل.

(٢) أفرُخِي: أولادي. تشتكي: لا تقصر في الشكوى. بؤسًا: ضرًّا وشدة. وميض: من أومض البرق: إذا لمع، والمراد هنا الظهور.

(٣) القانت: العابد. يفيض: يسيل.

(٤) النَّعَّاب: فرخ الغراب يقال إنه إذا خرج فرخ الغراب من البيضة يخرج أبيض فينكرهُ أبواه فيتركانه فيفتح فاه فيرسل الله ذبابًا يدخل في فيه فيكون غذاءه ثم بعد سبعة أيام يسود فيراجعه أبواه. الكسير: المكسور. المهيض: الذي ينكسر بعد جبره.

(٥) أتِح: أي قدِّر لنا ووفِّق من يكون نقي العرض من الملامة والمذمة. رحيض: مغسول طاهر.

(٦) مَذْقَة: اللبن فيه ماء. حازِر: لبن حامض. مخيض: لبن منزوع الزبد.

(٧) نابهم: أصابهم.

(٨) تعنوا: تخضع وتذل. النواصي: جمع ناصية وهي مقدم الرأس، والمراد أهلها. والنواصي أيضًا الأشراف. يوم وجوه الجمع سودٌ وبيض: يعني يوم القيامة.

(٩) لولاهم لم تبدُ لي صفحة: أي لولا هؤلاء الصبية الجياع لم تظهر لي صفحة وجه وهي جانبه. تصديت: تعرضت. القريض: هو الشعر.

قال الرَّاوي: فَوَاللهِ لَقَد صَدَّعَتْ[١] بأَبْيَاتِها أَعْشَارَ القُلُوب[٢]، واسْتَخْرَجَتْ خَبايا الجُيُوب[٣]، حتَّى ماحَها مَنْ دِينُه الامْتِياح[٤]، وارْتَاحَ[٥] لِرِفْدها[٦] مَنْ لم نَخَلْهُ[٧] يَرْتاح، فلمَّا افْعَوْعَمَ[٨] جَيْبُها تِبرًا[٩]، وأَوْلاَها[١٠] كلٌّ مِنَّا بِرًّا[١١]، تَوَلَّتْ[١٢] يَتْلُوها الأَصَاغِر[١٣]، وفُوها[١٤] بالشُّكْرِ فاغِر[١٥]، فاشْرَأَبَّتِ[١٦] الجَماعَةُ بَعْدَ مَمَرّها إلى سَبْرِها[١٧] لتَبْلُوَ[١٨] مَوَاقِعَ بِرِّها[١٩]، فَكَفَلْتُ

---

(١) صدَّعت: شقَّقت وفرَّقت.

(٢) أي: أجزاءها جمع عشر، وقلب أعشار إذا كان قطعًا.

(٣) كناية عمَّا يعطى من الدراهم.

(٤) أي: أعطاها مَنْ عادته طلب العطاء.

(٥) ارتاح: نشط.

(٦) رفدها: عطائها.

(٧) نَخَلْهُ: نظنه.

(٨) افعوعم: امتلأ جدًّا.

(٩) تبرًا: ذهبًا.

(١٠)أولاها: أعطاها.

(١١)برًّا: إحسانًا.

(١٢)تولَّت: أدبرت.

(١٣)الأصاغر: أي يتبعها الأولاد.

(١٤)وفوها: أي فمها.

(١٥)فاغر: فاتح بمعنى مفتوح بالشكر.

(١٦)اشرأبت: مدَّت عنقها ورفعت رأسها لتنظر، يقال: اشرأب البازي إذا مد عنقه للصيد.

(١٧)سبرها: اختبارها.

(١٨)تبلو: تختبر.

(١٩)برّها: مواضع صلتها.

لَهُمْ بِاسْتِنْباطِ السِّرِّ المَرْمُوز[١]، ونَهَضْتُ أَقْفُو أَثَرَ العَجُوز[٢]، حتَّى انْتَهَتْ إِلَى سُوقٍ مُغْتَصَّةٍ[٣] بالأنامِ مُخْتصَّةٍ بالزِّحام[٤] فانْغَمَسَتْ[٥] في الغُمار[٦]؛ وامَّلَسَتْ[٧] مِنَ الصِّبْيَةِ الأَغْمار[٨]، ثم عَاجَتْ[٩] بُخُلُوٍّ بال[١٠]، إلى مَسْجِدٍ خال، فأماطَتِ[١١] الجِلْباب[١٢]، ونَضَّت النِّقَاب[١٣] وأنَا أَلمَحُها[١٤] مِنْ خَصاص الباب[١٥]، وأرْقُبُ[١٦] ما سَتُبْدِي[١٧] مِنَ العُجَاب[١٨]، فلمَّا انْسَرَتْ[١٩]

---

(١) أي: ضمنت لهم استخراج سرها الخفي.

(٢) أي: وقمت أذهب متبعًا أثرها.

(٣) مغتصة: ممتلئة.

(٤) أي: مخصوصة بالزحام.

(٥) أي: فدخلت من انغمس في الماء إذا دخل فيه.

(٦) الغمار: بالضم والفتح جماعات الناس.

(٧) امَّلَست: تخلصت وانفلتت.

(٨) الأغمار: الجهَّال جمع الغمر بالضم وهو الذي لم يجرب الأمور.

(٩) عاجت: مالت ورجعت.

(١٠)بخلو بال: بقلبٍ خالٍ.

(١١)أماطت: أزالت.

(١٢)الجلباب: هو الملحفة أو الملاءة أو الرداء.

(١٣)نضت النقاب: كشفت البُرقع.

(١٤)ألمحها: أنظرها.

(١٥)خصاص الباب: شقوقه.

(١٦)أرقُب: أنتظر.

(١٧)ستُبدي: ستظهر.

(١٨)من العُجاب: ما جاوز حد العجب.

(١٩)انسرت: انكشفت.

أُهْبَةُ الخفَر[١]، رَأَيْتُ مُحَيَّا[٢] أَبِي زَيْدٍ قَدْ سَفَر[٣] فَهَمَمْتُ بِأَنْ أَهْجُمَ[٤] عَلَيْهِ، لأَعَنِّفَهُ[٥] عَلَى ما أَجْرَى[٦] إِلَيْه، فاسْلَنْقَى[٧] اسْلِنْقَاءَ المُتَمَرِّدِين، ثم رَفَعَ عَقِيرَةَ المُغَرِّدِين[٨]، وانْدَفَعَ يُنْشِدُ:

يـــا لَيْـــتَ شِـــعْرِي أَدْهـــرِي أَحَـــاطَ عِلْمًـــا بِقَـــدْرِي

وَهَـــلْ دَرَي كُنْـــهَ غَـــوْرِي[٩] فـــي الخَـــدْعِ أَمْ لَـــيْسَ يَـــدْرِي

كـــم قَـــدْ قَمَـــرْتُ بَنِيـــهِ[١٠] بِحِيلَتِـــــي وبِمَكْـــــرِي

وكـــم بَـــرَزْتُ بِعُـــرْفٍ[١١] عَلَـــــيْهِمُ وبِنُكْـــــرِ

أصـــطَادُ قَوْمًـــا بِـــوَعْظٍ وآخَـــــرِينَ بِشـــــعر

---

(١) أهبة الخفر: هيئة الحياء والمراد بها النقاب.

(٢) محيًّا: المقصود الوجه.

(٣) سَفَر: ظهر وانكشف.

(٤) أهْجُم: أدخُل في غفلة فجأة.

(٥) لأعنِّفه: لأُعيِّرَهُ وألومه.

(٦) أي جرى إليه وأجرى إليه قصده، وفي نسخة ما اجترأ عليه.

(٧) أي: فاستلقى كما في بعض النسخ بأن نام على ظهره منبسطًا.

(٨) العقيرة: الصوت.

(٩) غوري: أي غاية عمق عقلي.

(١٠)بنيه: أي غلبت بالقمار أهله.

(١١)برزت: ظهرت. بعرْفٍ: بمعنى المعروف ضد النكر بمعنى المنكر.

وأسْـــــــــتَفِزُّ بِخَـــــــــلٍّ عَقْـــــلاً[١] وعَقْـــــلاً[٢] بخمـــــرِ
وتـــــــارَةً أَنـــــا صَـــــخْرٌ وتـــــارَةً أُخْـــــتُ صَـــــخْرِ[٣]
ولـــــو سَـــــلَكْت سَـــــبِيلاً مَأْلُوفَـــــةً[٤] طُـــــولَ عُمـــــرِي
لخَـــــابَ قِـــــدْحِي وقَـــــدْحِي ودَامَ عُسْـــــرِي وخُسْـــــرِي[٥]
فَقُـــــلْ لِمَـــــنْ لامَ: هـــــذا عُـــــذْرِي فَـــــدُونك[٦] عُـــــذْرِي

قال الحارَثُ بن همَّام: فلمَّا ظَهَرْتُ[٧] عَلَى جَلِيَّةِ أَمْرِهِ[٨]، وبَدِيعَةِ إِمْرِهِ[٩]، وما زَخْرَفَ[١٠] فِي شِعْرِه مِنْ عُذْرِه، عَلِمْتُ أَنَّ شَيْطَانَهُ المَرِيد[١١]، لا يَسْمَعُ التَّفْنِيد[١٢]، ولا يَفْعَلُ إلاَّ مَا يُرِيد، فَثَنَيْتُ[١٣] إِلَى أَصْحَابِي

(١) أي: استخفَّ عقلاً بخلُ وهو كناية عن الخير والحق.
(٢) أي: استفز عقلاً بخمر وهو كناية عن الشر والباطل، يقال: لست من هذا الأمر في خل ولا في خمر أي لا في خير ولا شرّ.
(٣) صخر: هو ابن عمرو بن الشريد السلمي وأخته الخنساء الشاعرة المشهورة.
(٤) مألوفة: مسلوكة معروفة.
(٥) وخسري: أي لخسر سهمي، والقدح بالكسر أحد سهام الميسر التي كانوا يتساهمون بها على الجزور وبالفتح مصدر قدح الزند إذا ضربه على الزندة ليخرج النار. والعسر: الضيق ضد اليسر. والخسر: النقصان.
(٦) فدونك: أي خذ.
(٧) أي: اطلعت.
(٨) أي: حقيقة حاله.
(٩) الإمر بالكسر: الشيء العجيب.
(١٠)زخرف: حسَّن وزيَّن.
(١١)المريد: العاتي الخبيث.
(١٢)التفنيد: اللوم والتوبيخ من الفند بالتحريك وهو ضعف الرأي من الهرم.
(١٣)فثنيت: عطفت.

عِنـانِي[١]، وأَبْثَثْـتُهُمْ[٢] عِيـانِي[٣]، فَوجَمُـوا[٤] لِضَـيْعَةِ الجَـوائِزِ[٥] وتَعَاهَـدُوا عَلَـى مَحْرَمَةِ[٦] العَجَائِزِ».

(١) عناني: العنان بالكسر مقود الدابة.

(٢) أبثثتهم: أخبرتهم وشرحت لهم.

(٣) عياني: معاينتي ونظري.

(٤) فوجموا: سكتوا حزنًا من وجم إذا اشتدَّ حزنه حتى أمسك عن الكلام.

(٥) الجوائز: لضياع وذهاب العطايا.

(٦) محرمة: حرمان.

الأعشى في رسالة الغفران (*)

لأبي العلاء المعرِّي

أبو العلاء أحمد بن عبد الله المعرِّي، شاعر عبَّاسيّ، وُلد بالمعرَّة سنة ٣٦٣هـ، كان نادرة في الحفظ والذكاء، وقد عَمي في صغره، ومات سنة ٤٤٩هـ، عن ٨٦ سنة.

«ثم إنه – أدام الله تمكينه – يخطر له حديث شيء كان يسمى النزهة في الدار الفانية، فيركب نجيبًا من نُجُب الجنة خُلِقَ من ياقوتٍ ودرّ، في سجسج بَعُدَ عن الحرِّ والقرِّ، ومعه إناءُ فيهج(١)، فيسير في الجنة على غير مَنْهَج؛ ومعه شيءٌ من طعام الخُلود، ذُخِرَ لِوالِدٍ سَعِدَ أَو مَوْلودٍ. فإذا رأَى نجيبَهُ يُمْلِع(٢) بيْنَ كُثْبانِ العنْبَر، وضَيْمُرانٍ وُصِلَ بصَعْبرٍ(٣)، رَفَعَ صوْتَه مُتَمثِّلاً بقَوْلِ «البَكْريّ»:

ليتَ شِعري متى تَخُبُّ بنا النا ... قَةُ نَحْوَ العُذَيْبِ فالصَّيْبُونِ

مُحْقِبًا زُكْرَةً، وخُبْزَ رُقاقٍ ... وحِبَاقًا، وقِطعةً مِنْ نُونِ(٤)

يعني بالحِباقِ جُرْزَةَ البَقل. فيهتِفُ هاتفٌ: أَتَشْعُرُ أَيها العَبْدُ المغفُورُ له لمنْ هذا الشعرُ؟ فيقول الشيخُ: نعم، حدَّثَنا أَهلُ ثِقَتِنا عن أَهْلِ ثقَتِهم، يَتَوارثون

(*) من كتاب «رسالة الغفران» لأبي العلاء المعرِّي.

(١) من أسماء الخمر أو صفاتها.

(٢) يملع: يسرع ويخف، والمليع: الناقة أو الفرس السريع.

(٣) ضيمران وضومران: ضرب من الشجر، من ريحان البر. وصعبر كجعفر، وصعنبر كسمندل: شجر كالسدر.

(٤) البيتان أنشدهما الأصمعي لبعض البغداديين. وقد رويا في (ديوان الأعشى – ط. أوربا) بين الشعر الذي أنشد له وليس في ديوانه فانظر توثيق أبي العلاء هنا، لهذين البيتين من شعر الأعشى.

ذلك كابرًا عن كابرٍ، حتى يَصِلُوه «بأَبِي عمرو بن العلاءِ»، فيرويَه لهم عن أَشْيَاخ العرَبِ، حرَشةِ[١] الضبَابِ في البلادِ الكلدَاتِ[٢]، وجُنَاةِ الكَمأَةِ[٣] في مغاني البُدَاة، الذين لم يأكلوا شيرازَ[٤] الأَلبان، ولم يجعلوا الثَّمرَ في الثِّبان[٥]، أَنَّ هذا الشعرَ «لميمُونِ بن قيسِ بن جندَلٍ أَخي بني ربيعةَ بن ضُبَيْعَةَ بن قيس بن ثَعْلَبةَ بن عُكابةَ بن صَعبِ بن علي بن بكْرِ بن وائِلٍ». فيقولُ الهَاتفُ: أَنا ذلك الرَّجلُ، مَنَّ اللهُ عليَّ بعد ما صِرْتُ من جهنمَ على شَفِير، ويَئِستُ من المَغفرَةِ والتكفِير. فيلتَفِتُ إليه الشيخُ هَشًّا بَشًّا مُرْتاحًا، فإذا هو بِشابٍّ غُرانِق[٦]، غَبَرَ في النَّعيم المُفَانِق[٧]، وقد صار عَشَاه حوَرًا معروفًا، وانحناءُ ظَهرِه قوامًا موصوفًا. فيقولُ: أَخبرْني كيف كان خلاصُكَ من النار، وسلامتُكَ من قبيح الشنار؟ فيقول: سَحبَتْني الزبانِيةُ إلى سَقَرَ، فرأَيتُ رَجلاً في عرَصاتِ القِيامةِ يتَلألأُ وجهُه تلأْلُؤَ القَمَر، والنَّاسُ يَهْتِفونَ به من كلِّ أَوْب: يا مُحَمَّدُ يا مُحمَّدُ، الشَّفاعةَ الشَّفَاعة!! نَمُتُّ بِكَذا ونمُتُّ بِكذا. فصَرَختُ في أَيْدِي الزبانِيَة: يا مُحمَّدُ أَغِثْني فإن لي بكَ حُرْمةً! فقال: يا عليّ، بادِرْهُ فانْظُرْ ما حُرْمتُه؟ فجاءَني

---

(١) حرشة: جمع حارش، وهو صائد الضب. والحرش: الخديعة.

(٢) الكلدات: جمع كلدة، وهي الأرض الغليظة.

(٣) الكمأة: جمع كمء – شاذة، والقياس العكس – نبات يوجد تحت الأرض، شكله كالقلقاس، لا ساق له ولا عرق، لونه يميل إلى الغبرة، وقيل: الكمأة اسم جمع وليست جمعًا. قاله سيبويه.

(٤) الشيراز: اللبن الرائب، المقطوع.

(٥) الثبان: واحد الثبن، شيء كذيل القميص تعطفه وتثنيه فتجعل فيه ما شئت، ومنه تثبن الشيئ: جعله في الثبان وحمله بين يديه.

(٦) الغرانق هنا: الشاب الأبيض الجميل، جمعه غرانيق وغرانقة.

(٧) عيش مفانق: ناعم. والفنيقة: المرأة المنعمة، وتفنق: تأنَّق.

«عليٌّ بن أبي طالب» – صلواتُ اللهِ عليه – وأَنا أُعْتَلُ[١] كي أُلقَى في الدرَكِ الأَسفلِ من النَّار، فزَجرَهُم عنِّي، وقال: ما حُرْمَتُك؟ فقلتُ: أَنا القائلُ[٢]:

أَلا أَيُّهـذا السـائلي أَيـنَ يَمَّمـتْ ... فـإِنَّ لهـا فـي أَهـلِ يَثـرِبَ مَوْعِـدا
فآليـتُ لا أَرثـى لهـا مـن كَلالـةٍ ... ولا مِن حفًى، حتى تلاقي مُحمَّدا
متى ما تُناخِي عند بابِ ابنِ هاشِمٍ ... تُراحـى، وتَلْقَـى مـن فواضـلِهِ نَـدا
أَجِـدَّكَ لـم تَسـمَعْ وَصـاةَ مُحمَّـد ... نبـيِّ الإلـهِ حـينَ أَوْصَـى وأَشْـهدا
إذا أَنـت لـم تَرْحـلْ بـزادٍ مـن التُّقـى ... وأَبصَـرْتَ بعد المـوتِ مَـن قـد تَـزَوَّدا
نَـدِمتَ علـى أَن لا تكـونَ كمثلِـهِ ... وأَنَّـكَ لـم تُرْصِـدْ لِمـا كـانَ أَرصـدا
فَإِيَّـاكَ والميْتـاتِ لا تَقْرَبنَّهـا ... ولا تأخـذَنْ سـهمًا حدِيـدًا لِتقصِـدَا
ولا تَقـرَبن جـارَةَ إنَّ سِـرَّها ... عليـكَ حَـرَامٌ فـانْكِحنْ أَوْ تأَبَّـدَا
نَبـيٌّ يَـرَى مـالا يَـرَوْنَ، وذِكْـرُهُ ... أَغَـارَ لَعَمْـرِي فِـي الـبِلادِ وأَنجـدَا

وهو – أكملَ اللهُ زِينةَ المحَافِلِ بحُضورِهِ – يَعْرِفُ الأَقوالَ في هذا البيتِ وإنما أَذكُرُها لأنه قد يجوزُ أَن يقرأَ هذا الهَذَيانَ ناشِئٌ لم يَبْلُغْه: حَكَى «الفرَّاءُ» وحدَهُ (أَغارَ) في معنى غارَ، إِذَا أَتى الغوْرَ – وإذا صَحَّ هذا البيتُ «للأَعشَى» فلم يُرِدْ بالإغارةِ إلاَّ ضِدَّ الإنجاد. ورُوِي عن «الأصمَعيِّ» روايتان: إحداهما، أَنَّ أَغارَ في معنى عدَا عدْوًا شَديدًا، وأَنشدَ في (كتابِ الأَجناسِ):

فعـدِّ طِلابَهـا وتسَـلَّ عنهـا ... بناجيَـةٍ إذا زُجِـرَتْ تُغِيـرُ

والأُخرَى أَنه كانَ يُقَدِّمُ ويؤَخِّرُ فيقول:

---

(١) عتله عتلاً، جذبه وجرَّه عنيفًا. يقال: عتله إلى السجن، أي دفعه بعنف.

(٢) الأبيات من داليته المشهورة التي أعدها لينشدها للرسول ﷺ فصدته قريش.

لعَمْــريَ غــارَ فـــي الـــبِلادِ وأَنجـــدَا

فيجيءُ بهِ على الزِّحافِ. وكان «سعيدُ بن مَسْعدَةَ» يقولُ:

غـــار لعمـــرِي فـــي الـــبلادِ وأَنجـــدَا

فيَخرمُه في النصفِ الثاني.

ويقولُ: «الأَعشَى»: قلتُ لِعليٍّ: وقد كنتُ أُومنُ باللهِ وبالحسابِ وأُصَدقُ بالبعثِ وأَنا في الجاهليَّةِ الجَهْلاءِ. فمن ذلكَ قولي:

فمـــا أَيْبُلـــيٌّ علـــى هَيكـــل بنَـــاهُ وصَـــلَّبَ فيـــهِ وصـــارا

يُـــرَاوِحُ مِـــن صَـــلَواتِ المليـــك طَـــورا سُـــجودًا وطَـــورًا جُـــؤَارا

بـــأَعْظَمَ منـــكَ تُقًـــى فـــي الحِســـابِ إِذَا النَّسَـــماتُ نَفَضْـــنَ الغُبـــارا

فذَهَبَ «عليٌّ» إلى النَّبيِّ ﷺ، فقال: يا رسولَ اللهِ، هذا «أَعْشى قَيْسٍ» قد رُوي مَدْحُـه فيكَ، وشَـهِدَ أَنَّك نَبِـيٌّ مُرْسَـلٌ. فقال: هَـلاَّ جاءَني فـي الـدَّارِ السَّابقة؟ فقال «عليٌّ»: قد جاءَ، ولكِنْ صَدَّتهُ قُرَيْشٌ وحُبُّهُ للخمر. فشفَعَ لي، فأُدْخِلْتُ الجنَّةَ على أن لا أَشرَبَ فيها خَمرًا؛ فقَرَّتْ عَيْنَايَ بذلك، وإِنَّ لي منادِحَ في العَسَلِ وماءِ الحَيَوان[1]، وكذلك مَن لَمْ يَتُبْ من الخمرِ في الدَّارِ الساخِرة، لَم يُسقَها في الآخِرة».

* * *

(١) المنادح: جمع مندوحة، وهي السعة والفسحة. من الندح: السعة الكثرة. وماء الحيوان: بمعنى اللبن، هنا.

قصيدة «صحب النَّاس»(*)

للمتنبِّي

أبو الطيِّب أحمد بن الحسين، كوفي المنشأ، شاعر عبَّاسيّ مشهور، مدح أمراء الشام، ورحل إلى مصر، ومدح أميرها كافوراً، ثم ذهب إلى فارس مادَّاً ببغداد فمدح عضد الدولة وابن العميد، ثم رجع إلى الكوفة، فقتله الأعراب قرب بغداد سنة ٣٥٤هـ.

صَحِبَ النَّاسُ قَبْلَنَا ذَا الزَّمَانَا ... وَعَنَاهُمْ مِنْ شَأْنِهِ مَا عَنَانَا(١)

وَتَوَلَّوْا بِغُصَّةٍ كُلُّهُمْ مِنْـ ... ـهُ وَإِنْ سَرَّ بَعْضَهُمْ أَحْيَانَا(٢)

رُبَّمَا تُحْسِنُ الصَّنِيعَ لَيَالِيـ ... ـهِ وَلَكِنْ تُكَدِّرُ الإِحْسَانَا(٣)

وَكَأَنَّا لَمْ يَرْضَ فِينَا بِرَيْبِ الـ ... ـدَّهْرِ حَتَّى أَعَانَهُ مَنْ أَعَانَا(٤)

(*) من ديوان «المتنبي».

(١) عناه الأمر: أهمه، ومنه الحديث: «من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه» أي لا يهمه. يقول: كل من صحب الزمان اهتمَّ بشأنه كما نهتمّ نحن.

(٢) تولوا: ذهبوا. والغصة: ما غصصت به من هم وحزن ونحوهما، وأصلها الشجا يغص به في الحرقدة، تقول غصصت باللقمة وبالماء، يقول: لم ينل أحد مراده من الدنيا ولم يبلغ أمله فمات بغصته وإن سر في بعض الأحايين.

(٣) يقول: ديدن الدهر أن يعطي ثم يرجع فبما يعطي، ويحسن ولكنه لا يتم الإحسان، بل يعود فيكدره ويشوبه بما ينغصه، كما قال الآخر:

أَلَدَّهْرُ آخِذٌ مَا أَعْطَى مُكَدِّرُ مَا أَصْفَى وَمُفْسِدُ مَا أَهْدَى لَهُ بِيَدِ

(٤) قال ابن جني: في «يرض» ضمير هو فاعل يرض، يفسره «من أعانا» وأضمره قبل الذكر على شريطة التفسير، أو تقول إن «من أعانا» فاعل يرض وأعانه على التنازع. ويروى لم ترض – بالتاء – والضمير لليالي. يقول: هذا الذي أعان على الدَّهر كأنه لم يرض بما يصيبني من محنه حتى أعانه علي، كما قال الآخر:

أَعَانَ عَلَيَّ الدَّهْرَ إِذْ حَكَّ بَرْكَهُ كَفَى الدَّهرُ لَوْ وَكَّلْتَهُ بِي كَافِيًا

=

كُلَّمَـــا أَنْبَـــتَ الزَّمَـــانُ قَنَـــاةً ... رَكَّـبَ المَـرْءُ فِـي القَنَـاةِ سِـنَانَا[١]

وَمُـرَادُ النُّفُـوسِ أَصْـغَرُ مِـنْ أَنْ ... نَتَعَـــادَى فِيـــهِ وَأَنْ نَتَفَـــانَى[٢]

غَيْـرَ أَنَّ الفَتَـى يُلاَقِـي المَنَايَـا ... كَالِحَـــاتٍ ولا يُلاَقِـــي الهَوَانَـــا[٣]

وَلَـوَ انَّ الحَيَـاةَ تَبْقَـى لِحَـيٍّ ... لَعَـــدَدْنَا أَضَـــلَّنَا الشُّـــجْعَانَا[٤]

وَإِذَا لَـمْ يَكُـنْ مِـنَ المَـوْتِ بُـدٌّ ... فَمِـنَ العَجْـزِ أَنْ تَكُـونَ جَبَانَـا[٥]

كُلُّ مَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الصَّعْبِ فِي الأَنْـ ... ـفُسِ سَـهْلٌ فِيهَـا إِذَا هُـوَ كَانَـا[٦]

قال ابن جني: هذا البيت – والذي قبله – أحسن ما قيل في الزَّمان وأن طباعه الشر، وفعل الزمان منسوب إلى القضاء، فالزمان لا يفعل شيئًا، وإنما يفعل فيه، وكذا قولهم: يوم سعيد. فاليوم لا يوصف بسعد، وإنما يوصف به من يشتمل عليه اليوم.

(١) القناة: عود الرمح والسنان زجه الذي يطعن به. يقول: إذا انتدب الزمان للإساءة بما جبل عليه صارت عداوة العادي مددًا لقصده نحوك، فجعل «القناة» مثلاً لما في طبع الزمان، وجعل «السنان» مثلاً للعداوة. وعبارة ابن جني – ونقلها الخطيب التبريزي –: الزمان إذا أنبت قناة إنما ينبتها بالطبع ولا يشعر لأي شيء تصلح. فتكلَّف بنو آدم اتخاذ القناة توصلاً إلى هلاك النفوس، فالزمان يفعل ولا يشعر ما يراد به.

(٢) هذا نهي عن المعاداة والتحاسد لأجل مراد النفوس، فإن ما تريده النفوس من جاه الدنيا وحطامها أقل وأحقر من أن يعادي بعضنا بعضًا لأجله.

(٣) كالحات: عابسات يقول: إن الحر الكريم أحب إليه الموت الكريه من أن يلقى ذلاً وهوانًا.

(٤) يقول: لو كانت الحياة باقية لكان الشجاع الذي يتعرَّض للقتل أضل الناس، يعني أن الحياة لا تبقى. وإن جبن الإنسان ولزم عقر داره وحرص على البقاء، ثم أكد هذا بالبيت التالي.

(٥) يقول: إذا كان الموت لا محيض عنه ولا ينجو منه شجاع ولا جبان، فإن الجبن إذن – من ضعف الهمة وعجزها، قال خالد بن الوليد لما حضره الموت: في جسدي مائة طعنة وضربة، وها أنت قد مت حتف أنفي، فلا أقر الله أعين الجبناء.

(٦) كل: مبتدأ، ومن الصعب: خبرها، وسهل: خبر ثان، ويكن: تامة، وكذا «كانا» – آخر البيت –. يقول: إنما يصعب الأمر على النفس قبل وقوعه، فإذا وقع سهل وهان.

قصيدة «أم الأسير»(*)

لأبي فراس الحمداني

الحارث بن أبي العلاء الحمداني، غلبت عليه كنية «أبو فراس الحمداني»، وُلد بالموصل عام ٩٣٢م، وتوفي عام ٩٦٧م، أي بعد خمسة وثلاثين عامًا. قضى أبو فراس سبع سنوات من عمره القصير أسيرًا في بلاد الروم، فقد كان فارسًا شجاعًا يقاتل في صفوف المسلمين ضدّ الرُّوم، ولقد فجعه خبر موت أمه وهو في الأسر؛ فانطلق يكتب هذه المرثية المريرة الهادئة.(**)

يقول:

أَيا أُمَّ الأَسيرِ سَقاكِ غَيثٌ ... بِكُرهٍ مِنكِ ما لَقِيَ الأَسيرُ

أَيا أُمَّ الأَسيرِ سَقاكِ غَيثٌ ... تَحَيَّرَ لا يُقيمُ وَلا يَسيرُ

أَيا أُمَّ الأَسيرِ سَقاكِ غَيثٌ ... إِلى مَن بِالفِدا يَأتي البَشيرُ؟

أَيا أُمَّ الأَسيرِ لِمَن تُرَبَّى ... وَقَدْ مُتِّ، الذَوائِبُ وَالشُعورُ؟

إِذا اِبنُكِ سَارَ فِي بَرٍّ وَبَحرٍ ... فَمَنْ يَدعو لَهُ، أَو يَستَجيرُ؟

حَرامٌ أَن يَبيتَ قَريرَ عَينٍ ... وَلُؤمٌ أَن يُلِمَّ بِهِ السُّرورُ

وَقَد ذُقتِ الرَّزايا وَالمَنايا ... وَلا وَلَدٌ، لَدَيكِ وَلا عَشيرُ

وَغابَ حَبيبُ قَلبِكِ عَن مَكانٍ ... مَلائِكَةُ السَماءِ بِهِ حُضورُ

لِيَبْكِكِ كُلُّ يَوْمٍ صُمْتِ فيهِ ... مُصَابِرَةً وَقَدْ حَمِيَ الهَجيرُ

لِيَبكِكِ كُلُّ لَيلٍ قُمْتِ فيهِ ... إِلى أَنْ يَبتَدي الفَجرُ المُنيرُ

(*) من ديوان «أبي فراس الحمداني».

(**) هذا التعريف من كتاب «في النقد التطبيقي» للأستاذ الدكتور أحمد درويش. (بتصرف واختصار)

لِيَبكِكِ كُلُّ مُضطَهَدٍ مَخوفٍ ... أَجَرْتيهِ، وَقَد عَزَّ المُجيرُ

لِيَبكِكِ كُلُّ مِسْكِينٍ فَقِيرٍ ... أَغَثْتيهِ، وَما في العَظمِ زيرُ

أَيا أُمّاهُ كَم هَمٍّ طَويلٍ ... مَضَى بِكِ لَم يَكُنْ مِنهُ نَصيرُ

أَيا أُمَّاهُ كَم سِرٍ مَصُونٍ ... بِقَلبِكِ مَاتَ لَيْسَ لَهُ ظُهورُ

أَيا أُمّاهُ كَم بُشرى بِقُربي ... أَتَتْكِ، وَدُونَها الأَجَلُ القَصِيرُ

إِلى مَن أَشتَكي؟ وَلِمَن أُنَاجِي ... إِذَا ضَاقَتْ بِمَا فيها الصُدورُ؟

بِأَيِّ دُعَاءِ داعِيَةٍ أُوَقّى ... بِأَيِّ ضِياءِ وَجهٍ أَستَنيرُ؟

بِمَن يُسْتَدفَعُ القَدَرُ المُوَقّى ... بِمَن يُسْتَفتَحُ الأَمْرُ العَسِيرُ

نُسَلّى عَنكِ أَنَّا عَنْ قَلِيلٍ ... إِلى ماصِرْتِ فِي الأُخرى نَصِيرُ

عبد الله بن سوَّار وإلحاح الذُّباب (*)

للجاحظ

أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب، لُقِّب بالجاحظ؛ لجحوظ عينيه، عالم موسوعي، شغف منذ نشأته في البصرة بالقراءة؛ مما ساعده على الإلمام بمختلف العلوم والمعارف والثقافات. توفي في البصرة سنة ٢٥٥هـ، بعد أن جاوز التسعين من عمره.

«كان لنا بالبَصرة قاضٍ يقال له عبدُ الله بن سَوَّار(١)، لَمْ يَرَ النَّاسُ حاكمًا قطّ ولا زِمِّيتًا ولا رَكِينًا(٢)، ولا وقُورًا حليمًا، ضبَط من نفسه ومَلَكَ من حركته مِثْلَ الذي ضبَط وملَك. كانَ يصلِّي الغداةَ في منزله، وهو قريب الدَّارِ من مسجدِه، فيأْتي مجلسَه فيحتبى ولا يتَّكئ، فلا يزالُ مُنتصِبًا لا يتحرَّك له عضوٌ، ولا يلتفت، ولا يحلُّ حُبْوَته(٣) ولا يحوِّل رِجلاً عن رجل، ولا يَعتمِد على أحد شِقَّيه، حَتَّى كأَنَّه بناءٌ مبنيٌّ، أو صخرةٌ منصوبة. فلا يزال كذلك، حتَّى يقوم إلى صلاة الظهر ثمَّ يعودُ إلى مجلسهِ فَلاَ يزال كذلك حتَّى يقوم إلى العَصر، ثُمَّ يرجع لمجلسه، فلا يزال كذلك حَتَّى يقوم لصلاة المغرب، ثُمَّ رُبَّما عاد إلى محلِّه، بل كثيرًا ما كان يكون ذلكَ إذا بقي عليه من قراءة العهود والشُّروط والوثَائق، ثُمَّ يُصَلِّي العشاء [الأخيرة](٤) وينْصَرف. فالحق يقال: لَمْ يقُمْ في طول تلك المُدَّةِ والوِلايَةِ مَرَّةً واحدَةً إلى الوضوء، ولا احتاجَ إليه، ولا شَرِبَ ماءً ولا غيرَه من الشَّراب. كذلك كانَ شأْنُه في طِوال الأيام وفي قصارها، وفي

(*) من كتاب «الحيوان» للجاحظ، ج/٣.

(١) هو عبد الله بن سوَّار (بالتشديد) بن عبد الله بن قدامة العنبري البصري.

(٢) الزِّمِّيت كسكِّيت: العظيم الوقار. والركين: الرزين.

(٣) الحبوة، بالفتح وتضمّ: أن يجمع الرجل بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها.

(٤) العشاء الأخيرة خلاف الأولى، والأولى هي المغرب.

صيفها وفي شتائها. وكان مع ذلك لا يحرِّك يدَه، ولا يُشيرُ برأسِه. وليس إلاَّ أن يتكلمَ [ثمَّ يوجز، ويبلغ بالكلام اليسيرِ المعاني الكثيرة]. فبينما هو كذلك ذاتَ يوم وأصحابه حوالَيه، وفي السِّماطين[١] بينَ يَدَيْه، إذْ سَقَطَ عَلَى أنفِهِ ذُبَابٌ فأَطَال المُكث، ثمَّ تحوَّل إلى مُؤْقِ عينه[٢]، فرام الصَّبر في سقوطه عَلَى المؤق، وعلى عضِّه ونفاذِ خُرطومه كما رَام من الصَّبرِ عَلَى سقوطه عَلَى أنفه من غير أن يحرِّك أرنبَته. أو يغضِّنَ[٣] وجهَهُ، أو يذبّ بإصبعه. فلمَّا طال ذلك عليهِ من الذبَابِ وشغَله وأوجعَه وأحرَقهُ، وقصَدَ إلى مكانٍ لا يحتمل التَّغافُلَ، أطبَق جفنَهُ الأعْلى عَلَى جفنِه الأسفلِ فلم ينهض، فدعاه ذلك إلى أن وَالَى[٤] بينَ الإطباقِ والفَتْح، فتنحَّى ريثمَا سَكَنَ جفنُهُ، ثُمَّ عاد إلى مؤقهِ بأشدَّ من مرَّتِه الأولى فَغَمَسَ خُرطومهُ في مكانٍ كان قد أوهاهُ قبلَ ذلك، فكان احتماله له أضعف، وعجزُه عن الصَّبر في الثانية أقوى، فحرَّك أجفانَهُ وزادَ في شدَّة الحركة وفي فتح العين، وفي تتابُع الفتْح والإطباق، فتنحَّى عنهُ بقدْرِ ما سكَنَتْ حركتُهُ ثم عَاد إلى موضعِهِ، فمازالَ يلحُّ عليه حتى استفرغَ صبْرَه وَبَلَغَ مجهُودَه. فلم يجدْ بُدًّا من أن يذبَّ عن عينيهِ بيده، ففعل، وعيونُ القوم إليه ترمُقه، وكأنَّهم لا يَرَوْنَه، فتنحَّى عنه بقدْر ما رَدَّ يدَه وسَكَنَتْ حركتُه، ثم عاد إلى موضعه، ثمَّ ألجأَه إلى أن ذبَّ عن وجهْه بطَرَف كمه، ثم ألجَأه إلى أن تابَعَ بين ذلك، وعلم أنَّ فِعلَه كلَّه بعينِ مَنْ حَضَره من أُمنائه وجُلسائه. فلمَّا نظَروا إليه قال: أشهد أنَّ الذّباب ألَجُّ من الخنفساء، وأزهى من الغراب! وأستغفر الله! فما أكثر

---

(١) السماط، بالكسر: الصف.

(٢) المؤق: طرف العين مما يلي الأنف.

(٣) غضن وجهه: جعل به غضونا، وذلك بأن يقبض جلده.

(٤) والى: تابع.

مَن أعجبَتْه نفسُه فأراد الله ﷻ أن يعرِّفَه من ضعْفِه ما كان عنهُ مستورًا! وقد علمتُ أنِّي عند الناس مِنْ أزْمَتِ الناس[١]، فقد غلَبَني وفَضَحني أضعفُ خَلْقِه! ثُمَّ تلا قولَهُ تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾[٢].

وكان بيِّنَ اللِّسان، قليلَ فُضولِ الكلام، وكان مهيبًا في أصحابه، وكان أحدَ منْ لم يُطْعَنْ عليهِ في نفسِه، ولا في تعريض أصحابِه للمَنَالة»[٣].

---

(١) أزمت الناس: أي أشدهم وقارًا وسكونًا.

(٢) سورة الحج، الآية ٧٣.

(٣) المنالة: مصدر نلت أنال.

معاذة العنبريَّة (*)

للجاحظ

قال شيخ: «لم أرَ في وَضع الأمور مواضعَها وفي توفِيتها غاية حُقوقها، كمعاذةَ العنبريَّة. قالوا: وما شأن معاذَة هذه؟ قال.

أهدي إليها العامَ ابنُ عمٍّ لها أُضحيَّة. فرأيتُها كئيبةً حزِينةً مفكِّرة مُطرِقة، فقلتُ لها: مالكِ يَا مُعاذة؟ قالت: أنا امرأة أَرْملة وليس لي قيّم، ولا عهد لي بتدبير لحم الأضاحي. وقد ذهب الذين كانوا يدبِّرونه ويقومون بحقِّه. وقد خفتُ أن يضيعَ بعضُ هذه الشاة، ولستُ أعرفُ وضعَ جميع أجزائها في أماكنها. وقد علمتُ أن الله لم يخلُق فيها ولا في غيرها شيئًا لا منفعة فيه. ولكن المرء يعجز لا محالة. ولستُ أخاف من تضييع القليل إلا أنه يَجرُّ تضييع الكثير.

أمَّا القرنُ فالوجهُ فيه معروف، وهو أن يُجعلَ منه كالخُطَّاف، ويسمَّر في جِذع من أجذاع السقف، فيعلّق عليه الزُّبُل والكيران، وكل ما خيفَ عليه من الفأر والنمل والسنانير وبناتِ وَردان والحيَّات وغير ذلك. وأما المُصران فإنه لأوتار المِندفة، وبنا إلى ذلك أَعظمُ الحاجة. وأما قِحف الرأس واللَّحيان وسائرُ العظام فسبيله أن يُكسَر بعد أن يُعرَق، ثم يطبخ، فما ارتفع من الدَّسم كان لِلْمِصباح وللإِدام وللعصيدة ولغير ذلك، ثم تؤخذُ تلك العظام فيوقَدُ بها، فلم يرَ النَّاسُ وقودًا قطُّ أصفى ولا أحسنَ لَهَبًا منه. وإذا كانت كذلك فهي أسرعُ في القدر، لقلَّة

(*) من كتاب «البخلاء» للجاحظ.

ما يخالطها من الدخان. وأما الإهابُ فالجلدُ نفسه جِراب. وللصوف وجوهٌ لا تُعدّ. وأما الفرْثُ والبعر فحَطب إذا جفف عجيب.

ثم قالت: بقي الآن علينا الانتفاعُ بالدم. وقد علمتُ أنَّ الله ﷻ لم يحرِّم من الدم المسفوح إلاَّ أكلَه وشُربه، وأن له مواضعَ يجوز فيها ولا يُمنع منها، وإن أنا لم أقعْ على علم ذلك حتَّى يوضَع مَوْضِعَ الانتفاعِ بِه، صار كيَّة في قلبي وقذًى في عيني، وهمًّا لا يزالُ يعودني.

قال: فلم أَلبثْ أن رأيتُها قد طلّقت وتبسَّمت. فقلتُ: ينبغي أن يكونَ قد انفتح لكِ باب الرأي في الدم. قالت: أجل ذكرتُ أنَّ عندي قدورًا شاميّة جُدُدًا. وقد زعموا أنه ليسَ شيء أدبغَ ولا أزيدَ في قوّتها من التلطيخ بالدم الحارّ الدسِم. وقد استرحتُ الآن، إذ وقع كلُّ شيءٍ موقِعه.

قال: ثم لقيتُها بعَد ستة أشهر، فقلتُ لها: كيف كان قديدُ تلك؟ قالت بأبي أنت! لم يجئ وقتُ القديد بعدُ. لنا في الشَّحم والأليةِ والجنُوب والعظم المعرق وفي غير ذلك مَعاش. ولكلِّ شيء إبَّان.

فقبضَ صاحبُ الحمارِ والماءِ العذب قَبضة من حصى، ثم ضرب بها الأرض، ثم قال: لا تعلمُ أنك من المسرفين، حتى تسمعَ بأخبارِ الصَّالحين».

قصة الأرنب والأسد (*)

لابن المقفَّع

هو الكاتب البليغ واللغوي الحجة والأديب الموهوب، فارس الأصل عربي اللغة والجنسية، كان كاتبًا مفكِّرًا، ولد عام ١٠٧هـ، وقتل عام ١٤٢هـ.

«قال دمنة: زعموا أن أسدًا كان في أرض كثيرة المياه والعشب، وكان في تلك الأرض من الوحوش في سعة المياه والمرعى شيء كثير، إلا أنه لم يكن ينفعها ذلك، لخوفها من الأسد، فاجتمعت وأتت إلى الأسد، فقالتْ له: إنك لتصيب منَّا الدابَّة بعد الجهد والتعب، وقد رأينا لك رأيًا فيه صلاح لك وأمن لنا. فإن أنت أمنتنا ولم تخفْنا، فلك علينا في كل يوم دابة نرسلُ بها إليك في وقت غدائك: فرضي الأسد بذلك، وصالح الوحوش عليه، ووفيَّن له به، ثم إنَّ أرنبًا أصابتها القرعة، وصارت غداء الأسد، فقالتْ للوحوش: إن أنتن رفقتنَّ بي فيما لا يضرُّكن، رجوت أن أريحَكنَّ من الأسد، فقالت الوحوش: وما الذي تكلفيننا من الأمور؟ قالت: تأمرن الذي ينطلق بي إلى الأسد أن يمهلَني ريثما أبطئ عليه بعض الإبطاء. فقلن لها: ذلك لك. فانطلقت الأرنب متباطئة، حتى جاوزت الوقت الذي كان يتغدَّى فيه الأسد، ثم تقدَّمت إليه وحدها رويدًا، وقد جاع، فغضب وقام من مكانه نحوها، فقال لها: من أين أقبلت؟ قالت: أنا رسول الوحوش إليك، بعثتني ومعي أرنب لك، فتبعني أسد في بعض تلك الطريق، فأخذها منِّي، وقال: أنا أولى بهذه الأرض وما فيها من الوحش. فقلت: إن هذا غداء الملك أرسلني به الوحوش إليه. فلا تغضبنَّه، فسبَّك وشتمك. فأقبلت مسرعة لأخبرك، فقال الأسد: انطلقي معي فأريني موضع هذا

(*) من كتاب «كليلة ودمنة»، ترجمة ابن المقفَّع.

الأسد، فانطلقت الأرنب إلى جب فيه ماء غامر صاف، فاطَّلعت فيه، وقالت: هذا المكان.. فاطَّلع الأسد، فرأى وظل الأرنب في الماء، فلم يشكّ في قولها، ووثب إليه ليقاتله، فغرق في الجب، فانقلبت الأرنب إلى الوحوش فأعلمتهن صنيعها بالأسد».

احتكام الشعراء في عكاظ(*)

حكى عن نابغة(١) بني ذُبْيان أنه كانت تُضْرَبُ له قُبَّةٌ من أَدَم بسوق عُكاظ يجتمع إليه فيها الشعراء، فدخل إليه حسَّانُ بن ثابت، وعنده الأعشى، وقد أنشده شعره، وأنشدتْه الخَنْساء قولها:

قَـذًى بعينـك أم بـالعين عُـوَّار أم ذَرَّفَتْ إِذْ خَلَتْ من أَهْلِها الدَّارُ(٢)

حتى انتهت إلى قولها:

وإنَّ صـخرًا لتـأتَمُّ الهُـداةُ بـه كأنـه عَلَـمٌ(٣) فـي رأسـه نـارُ

وإنَّ صـخرًا لمَوْلانـا وسـيِّدُنا وإنَّ صَـخْرًا إِذَا نَشْـتُو(٤) لنحَّـارُ

فقال: لولا أن أبا بَصِير(٥) أنشدني قبلَكِ لقلتُ: إنَّكِ أشعرُ النَّاس. أنتِ والله أشعرُ من كل أنثى! قالت: والله ومن كل رجل.

فقال حسَّان: أنا والله أشعرُ منكَ ومنها. قال: حيثُ تقول ماذا؟ قال: حيث أقول:

لنا الجفناتُ الغرُّ يَلمَعْنَ بالضُّحا وأسيافُنا يَقْطُرْنَ من نجْدَةٍ دَمَا

ولدْنا بني العَنْقَاءِ وابنَيْ محرِّقٍ(١) فأكْرِمْ بنا خالاً وأكرِمْ بنا ابْنَمَا

(*) من كتاب «قصص العرب»، ج/١.

(١) هو أبو أمامة زياد بن معاوية، أحد فحول شعراء الجاهلية وحكمهم بعكاظ، ولقِّب بالنابغة لنبوغه في الشعر، وهو من أشراف ذبيان، وعمَّر طويلاً ومات قبيل البعثة.

(٢) العوار: كل ما أعل العين. وذرفت: قطرت.

(٣) العلم: الجبل.

(٤) شتا القوم: أجدبوا في الشتاء.

(٥) أبو بصير: كنية الأعشى.

فقال: إنك شاعر لولا أنك قلت: «الجفنات» فقلَّلتَ العدد، ولو قلت: «الجِفان» لكان أكثر. وقلت: «يَلمعن في الضُّحا» ولو قلتَ: «يَبْرُقْنَ بالدُّجا» لكان أبلغ في المديح؛ لأن الضيف بالليل أكثرُ طروقًا، وقلتَ: «يَقْطُرْنَ من نجدةٍ دمًا» فدلَلْتَ على قِلَّةِ القتل، ولو قلتَ: «يَجْرِينَ» لكان أكثر لانْصِبَابِ الدَّم، وفَخَرْتَ بمن وَلَدْتَ، ولم تَفْخَرْ بمن وَلَدَكَ.

فقام حسَّان منكسرًا منقطعًا!

(١) العنقاء: ثعلبة بن عمرو مزيقيا بن عامر بن ماء السماء. ومحرق: هو الحارث بن عمرو مزيقيا، وكان أول من عاقب بالنار.

من لامية العرب (*)

للشنفرى

الشنفرى، شاعر جاهلي، مات سنة ٧٠ ق.هـ. عاصر تأبَّط شرًّا. وكلمة (الشنفرى) لقبه، وهو يعنى غليظ الشفتين، وقد لُقب به؛ لعظم شفتيه.

[من الطويل]:

أُدَيمُ مِطَالَ الجُوعِ حَتَّى أُمِيتَهُ ... وَأَضرِبُ عَنْهُ الذِّكْرَ صَفْحًا فأَذْهَلُ(١)

وَأَسْتَفُّ تُرْبَ الأَرْضِ كَيْلاَ يَرَى لَهُ ... عَلَيَّ مِنَ الطَّوْلِ امرُؤٌ مُتَطَوِّلُ(٢)

ولولا اجْتِنَابُ الذَّأْمِ لم يُلْفَ مَشْرَبٌ ... يُعَاشُ بِهِ إلاَّ لَدَيَّ وَمَأْكَلُ(٣)

وَلَكِنَّ نَفْسًا حُرَّةً لا تُقِيمُ بِي ... عَلَى الذامِ إلاَّ رَيْثَمَا أَتَحَوَّلُ(٤)

وَأَطْوِي على الخَمْصِ الحَوَايَا كَمَا انْطَوَتْ ... خُيُوطَةُ مَارِيٍّ تُغَارُ وتُفْتَلُ(٥)

(*) من ديوان الشنفرى.

(١) أديم: من المداومة، وهي الاستمرار. المطال: المماطلة. أضرب عنه الذِّكْر صَفْحًا: أتناساه. فأذهل: أنساه. يقول: أتناسى الجوع، فيذهب عنِّي. وهذه الصورة من حياة الصَّعْلَكَة.

(٢) الطَّوْل: المَنّ. امرؤ متطوِّل: منَّان. والمعنى أنَّه يفضِّل أن يستفّ تراب الأرض على أن يمدّ أحد إليه يده بفضل أو لقمة يمنُّ بها عليه.

(٣) الذَّأم والذَام: العيب الذي يُذمّ به. يُلفى: يوجد. والمعنى: لولا تجنّبي ما أذمّ به، لحصلت على ما أريده من مأكل ومشرب بطرق غير كريمة.

(٤) مرَّة: صعبة أبيَّة. الذام: العيب. وفي هذا البيت استدراك، فبعد أن ذكر الشاعر أنَّه لولا اجتناب الذمّ لحصل على ما يريده من مأكل ومشرب، قال إنَّ نفسه لا تقبل العيب قط.

(٥) الخَمص: الجوع، والخُمص: الضُّمر. الحوايا: جمع الحويَّة، وهي الأمعاء. الخيوطة: الخيوط. ماريّ: فاتل، وقيل: اسم رجل اشتُهر بصناعة الحبال وفتلها. تُغارُ: يُحكم

=

وأَغْدُو علـى القُـوتِ الزَّهِيـدِ كمـا غَـدَا أَزَلُّ تَهَـــادَاهُ التنَـــائِف أَطْحَـــلُ[١]

غَـدَا طَاوِيًـا يُعَـارِضُ الـرِّيحَ هَافِيًـا يَخُـوتُ بأَذْنَـابِ الشِّـعَابِ وَيَعْسِـلُ[٢]

فَلَمَّـا لَـوَاهُ القُـوتُ مِـنْ حَيْـثُ أَمَّـهُ دَعَـــا فَأَجَابَتْـــهُ نَظَـــائِرُ نُحَّـــلُ[٣]

مُهَلَّلَـــةٌ شِـــيبُ الوُجُـــوهِ كأنَّهـــا قِـــدَاحٌ بأيـــدي ياسِـــرٍ تَتَقَلْقَـــلُ[٤]

فتلها. والمعنى: أطوي أمعائي على الجوع، فتصبح، لخلوّها من الطعام، يابسة ينطوي بعضها على بعض كأنَّها حبال أُتقن فتلها.

(١) أغدو: أذهب في الغداة، وهي الوقت بين شروق الشمس والظهر. القوت: الطعام. الزهيد: القليل. الأزلّ: صفة للذئب القليل اللحم. تهاداه: تتناقله وتتداوله. التنائف: الأرضون، واحدتها تنوفة، وقيل: هي المفازة في الصحراء. الأطحل: الذي في لونه كدرة. يشبه الشاعر نفسه بذئب نحيل الجسم جائع يتنقَّل بين الفلوات بحثًا عن الطعام.

(٢) الطاوي: الجائع. يعارض الريح: يستقبلها. أي: يكون عكس اتِّجاهها. وهذا الوضع يساعده على شمّ رائحة الفريسة واتِّباعها. الهافي: الذي يذهب يمينًا وشمالاً من شدَّة الجوع، وقيل: معناه السريع. يخوت: يختطف وينقضّ. أذناب: أطراف. الشِّعاب: جمع الشِّعب، وهو الطريق في الجبل. يعسل: يمرّ مرًّا سَهْلاً. وفي هذا البيت تتمَّة لما في البيت السابق من وصف للذئب.

(٣) لواه: دفعه، وقيل: مطله وامتنع عليه. أَمَّه: قصده. النَّظائر: الأشباه التي يشبه بعضها بعضًا. نُحَّل: جمع ناحِل، وهو الهزيل الضَّامِر. يقول: بعد أن يئس هذا الذئب من العثور على الطعام، استغاث بجماعته، فأجابته هذه، فإذا هي جائعة ضامرة كحاله.

(٤) مُهَلَّلة: رقيقة اللحم، وهي صفة لِـ«نظائر» التي في البيت السابق. شيب: جمع أَشْيب وشيباء. القِداح: جمع قِدْح، وهو السَّهْم قبل بريه وتركيب نصله، وهو، أيضًا، أداة للقمار. الياسر: المقامِر. تتقلقل: تتحرَّك وتضطرب. وفي هذا البيت يصف الشاعر =

أَوِ الخَشْـرَمُ المَبْعُـوثُ حَثْحَـثَ دَبْـرَهُ مَحَـابِيضُ أَرْدَاهُـنَّ سَـامٍ مُعَسِّـلُ[١]

مُهَرَّتَـــةٌ فُـــوهٌ كـــأَنَّ شُـــدُوقَها شُـقُوقُ العِصِـيِّ كَالِحَـاتٌ وَبُسَّـلُ[٢]

فَضَـــجَّ وَضَـــجَّتْ بـــالبَرَاحِ كأَنَّهـــا وَإِيَّـــاهُ نُـــوحٌ فَـــوْقَ عَلْيَـــاءَ ثُكَّـــلُ[٣]

الذئاب الجائعة الباحثة عن الطعام، فإذا هي نحيلة من شدَّة الجوع، بيضاء شعر الوجه، مضطربة كسهام القمار.

(١) «أو» للعطف إمَّا على الذئب الأزلّ في البيت الذي سبق قبل ثلاثة أبيات، وإمَّا على «قداح» التي في البيت السابق، وجاز عطف المعرفة على النكرة لأنه أراد بـ«الخشرم» الجنس إبهامًا، و«قداح» وإن كان نكرةً، فقد وُصف، فاقترب من المعرفة. والخشرم: رئيس النحل. حَثْحَثَ: حرَّك وأزعج. الدَّبْر: جماعة النَحْل. المحابيض: جمع المحبض، وهو العود مع مشتار العسل. أرداهُنَّ: أهلكهنّ. السامي: الذي يسمو لطلب العسل. المعَسِّل: طالب العسل وجامعه.

(٢) المُهَرَّتة: الواسعة الأشداق. الفُوه: جمع «الأفوه» للمذكَّر، والفوهاء للمؤنَّث، ومعناه المفتوحة الفم. الشُّدوق: جمع الشَّدق، وهو جانب الفم. كالحات: مكشّرة في عبوس. البُسَّل: الكريهة المنظر. والشاعر في هذا البيت يعود إلى وصف الذئاب التي تجمَّعت حول ذلك الذي دعاها لإنجاده بالطعام، فيصفها بأنَّها فاتحة أفواهها، واسعة الشدوق، كئيبة كريهة المنظر.

(٣) ضَجَّ: صاح. البراح: الأرض الواسعة. النوح: النساء النوائح. العلياء: المكان المرتفع. الثُّكَّل: جمع الثَّكْلى، وهي المرأة التي فقدت زوجها أو ولدها أو حبيبًا. والمعنى أنَّ الذئب عوى فعوتِ الذئاب من حوله، فأصبح وإيَّاها كأنَّهنَّ في مأتم تنوح فيه الثكالى فوق أرض عالية.

وَأَغْضَى وأَغْضَتْ وَاتَّسَى واتَّسَتْ بِهِ مَرَامِيلُ عَزَّاهَا وعَزَّتْهُ مُرْمِلُ[١]

شَكَا وَشَكَتْ ثُمَّ ارْعَوَى بَعْدُ وَارْعَوَتْ وَلَلصَّبْرُ إِنْ لَمْ يَنْفَعِ الشَّكْوُ أَجْمَلُ[٢]

وَفَاءَ وَفَاءَتْ بِادِرَاتٍ وَكُلُّهَا عَلَى نَكَظٍ مِمَّا يُكَاتِمُ مُجْمِلُ[٣]

---

(١) أغْضَى: كفّ عن العواء. اتَّسَى، بالتشديد: افتعل من «الأسوة»، «وهي الاقتداء. والمراميل: جمع المرمل، وهو الذي لا قوت له. والمعنى: أنَّ الذِّئب وجماعته وجدا حالهما متَّفقين يجمعهما البؤس والجوع، فأخذ كلّ منهما يعزِّي الآخر ويتأسَّى به.

(٢) شكا: أظهر حاله من الجوع. ارعوى: كفّ ورجع. الشكو: الشَّكوى. وعجُز هذا البيت حكمه، ومفادها أنَّ الصبر أفضل من الشكوى إن كانت غير نافعة.

(٣) فاء: رجع. بادرات: مسرعات، وبادره بالشيء أسرع به إليه. النكظ: شدَّة الجوع. يكاتم: يكتم ما في نفسه. مُجْمِل: صانع للجميل. وفي هذا البيت يتابع الشاعر وصف الذئاب، فيقول إنَّهُنَّ بعد يأسهنّ من الحصول على الطعام، عدن إلى مأواهنّ، وفي نفوسهنّ الحسرة والمرارة.

نصوص للقراءة والفهم والاستيعاب

النص الأول:
في مسألة القَدَر، لابن السِّيْد البَطَلْيوسي.

"يَنْبَغِي لمن طلب هَذَا الشَّأْن وَلم يقنعه مَا رَآهُ الْعلمَاء وَأمرُوا بِهِ من ترك الْخَوْض فِيهِ أَن يُرَاعِي أصلين، فإن صَحَّا لَهُ من معتقده فَليعلم أَنه قد أصَاب فصَّ الْحق وإن أخطأهما أَو وَاحِدًا مِنْهُمَا فَليعلم أَنه قد غلط فَليُرَاجع النّظر:

أَحدهمَا: أَنه لَا فَاعل على الْحَقِيقَة الا الله تَعَالَى، وأن كل فَاعل غَيره إنما يفعل بمعونة من عِنْده ومادة يمده بهَا من فيضه وَحَوله وَلَو وَكله الى نَفسه لما كَانَ لَهُ فعل أَلْبَتَّةَ.

وَالثَّانِي: أَن أَفعَال الْبَارِي عز وَجل كلهَا حِكْمَة مَحْضَة لَا عَبث فِيهَا، وَعدل مَحْض لَا جور فِيهِ، وَحسن مَحْض لَا قبح فِيهِ، وَخير مَحْض لَا شَرّ فِيهِ، وَأَن هَذِه الْأَشْيَاء إنما تعرض فِي أفعالنا إما لوُقُوع الْأَمر وَالنَّهْي علينا وإما لما ركز فِي خلقتنا من الْقُوَّة الْعَقْلِيَّة الَّتِي ترينا بعض الْأَشْيَاء حسنًا وَبَعضهَا قبيحًا، وكلا الصفتين لَا يُوصف بهما الْبَارِي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِأَنَّهُ لَا آمُر فَوْقه وَلَا ناهي وَهُوَ خَالق الْعقل وموجده.

وَجُمْلَة ذَلِك أَنه لَا يشبه شَيْئًا من الْمَخْلُوقَات فِي جِهَة من الْجِهَات فَكل قَول أداك إلى تشبيهه بخلقه فِي ذَات أَو فعل فارفضه رفض النواة وانبذه نبذ القذاة وَاعْلَم أَن الْحق فِي غَيره فابحث عَلَيْهِ حَتَّى تظفر بِهِ وإن لم يتَّفق لَك فهم الْغَرَض مِنْهُ وَالْمرَاد فاشدد يدك بِعُرْوَة هَذَا الاعتقاد وَلَا تتهم بارئك فِي حكمته وَلَا تنازعه فِي قدرته وَاعْلَم بِأَنَّهُ غَنِي عَنْك وَأَنت مفتقر اليه وارد بِمَا تزودت من عَمَلك عَلَيْهِ تبَارك الْمُنْفَرد بأقضيته وَأَحْكَامه الَّذِي لَا يُنَازع فِي نقضه

وابرامه وَلَا يمتري العاقلون فِي عدله وَلَا ييأس المذنبون من عَفوه وفضله لَا رب سواهُ وَلَا معبود حاشاه"[١].

(١) الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب التي أوجبت الاختلاف، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، ط٣، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص١٤٠، ١٤١.

النص الثاني:
في المعاد، لابن رشد.

قال أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي:

"(المعاد) مما اتفقت على وجوده الشرائع، وقامت عليه البراهين عند العلماء، وإنما اختلفت الشرائع في صفة وجوده، ولم تختلف في الحقيقة في صفة وجوده وإنما اختلفت في الشهادات التي مُثِّلت بها للجمهور تلك الحال الغائبة، وذلك أن من الشرائع من جعله روحانيًّا . أعني للنفوس . ومنها من جعله للأجسام والنفوس معًا، والاتفاق في هذه المسألة مبني على اتفاق الوحي في ذلك، واتفاق قيام البراهين الضرورية عند الجميع على ذلك.

أعني: أنه قد اتفق الكل على أن للإنسان سعادتين: أخراوية ودنياوية، وانبنى ذلك عند الجميع على أصول يُعترف بها عند الكل؛ منها أن الإنسان أشرف من كثير من الموجودات، ومنها أنه إذا كان كل موجود يظهر من أمره أنه لم يُخلق عبثًا، وأنه خُلق لفعل مطلوب منه، وهو ثمرة وجوده، فالإنسان أحرى بذلك ... ووجود الغاية في الإنسان أظهر منها في جميع الموجودات، وقد نبه الله سبحانه عليها في غير ما آية من كتابه، فقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ (المؤمنون)، وقال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ (القيامة)، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ (الذاريات)؛ يعنى الجنس من الموجودات الذي يعرفه، وقال منبهًا على ظهور وجوب العبادة من قبل المعرفة بالخالق: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (يس)، وإذا ظهر أن الإنسان خلق من أجل أفعال مقصودة به،

ظهر أيضًا أن هذه الأفعال يجب أن تكون خاصة؛ لأنا نرى أن واحدًا واحدًا من الموجودات إنما خلق من أجل الفعل الذي يوجد فيه لا في غيره، أعنى الخاص به، وإن كان ذلك كذلك فيجب أن تكون غاية الإنسان في أفعاله التي تخصه دون سائر الحيوان؛ وهذه أفعال النفس الناطقة ولما كانت النفس الناطقة جزأين: جزء عملي وجزء علمي، وجب أن يكون المطلوب الأوَّل منه هو أن يوجد على كماله في هاتين الفضيلتين هي الخيرات والحسنات، والتي تعوقها هي الشرور والسيئات.

ولما كان تقرير هذه الأفعال أكثر ذلك بالوحى وردت الشرائع بتقريرها ، ووردت مع ذلك بتعريفها والحث عليها ، فأمرت بالفضائل ونهت عن الرذائل ، وعَّرفت المقدار الذى فيه سعادة جميع الناس في العلم والعمل، أعني السعادة المشتركة، فعرفت من الأمور النظرية ما لا بد لجميع الناس من معرفته، وهى معرفة الله تبارك وتعالى ومعرفة الملائكة ومعرفة الموجودات الشريفة ، ومعرفة السعادة ، وكذلك عرَّفت من الأعمال القدر الذى تكون به النفوس فاضلة بالفضائل العملية وبخاصة شريعتنا هذه، فإنها إذا قويست بسائر الشرائع وجد أنها الشريعة الكاملة بإطلاق، ولذلك كانت خاتمة الشرائع"(١).

(١) ابن رشد، مناهج الأدلة، تحقيق: د. محمود قاسم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٦٤م، ص٢٤٠: ٢٤٢.

ذكر أول خطبة

خطب بها ببيت المقدس بعد الفتح

ولما كان يوم الجمعة التالية لجمعة الفتح ، وهو الرابع من شعبان ، حضر المسلمون الحرم الشريف ، فَغُصَّ بالزحام ، فإنه من حين[1] تسامع الناس به فى سائر الأطراف ، وكسر العدو ، والقصد إلى فتح بيت المقدس ، توافى الناس من كل صقع ، وجاءوا من كل فج ، ليفوزوا بالزيارة ويحظوا بالمشاهدة للفتح ، فاجتمع من أهل[2] الإسلام عدد عظيم لا يقع عليهم الإحصاء، فلما أذّن الظهر من يوم هذه الجمعة المباركة حضر السلطان بقبة الصخرة المقدسة وهو فى غاية السرور والفرح ، إذ جعله الله تعالى فى هذا الفتح ثانيا لعمر بن الخطاب — رضى الله عنه — الفاتح الأول وميّزه بهذه المنقبة دون سائر الملوك من ملوك الإسلام[3] .

وامتلأت عراص المسجد وصحونه بالخلائق ، واستعبرت العيون من شدة الفرح ، وخشعت الأصوات ، ووجلت القلوب ، وكان جماعة من الأكابر والعلماء قد رشحوا أنفسهم للخطبة فى هذا المسجد المعظم ، وأخذوا لذلك أهبته وألّفوا ما يخطبون به ، ومنهم من عرض للسلطان يطلب ذلك ، ومنهم من صرح ، والسلطان ساكت لا يبدى سره ، فلما حان وقت الخطبة نصّ على القاضى محيي الدين بن زكى الدين ،

وقدمه لهذا الأمر الجليل ، فرق[١] المنبر بالأهبة السوداء العباسية ، وخطب خطبة بديعة بليغة ، هى :

[٢٩٢] " فقُطِعَ دابِرُ القَوْمِ الذين ظَلَمُوا والحمدُ لله رَبِّ العَالمين "[٢] .

" الحمدُ لله ربِّ العالمين ، الرَّحْمَنِ الرَّحيم ، مالِكِ يومِ الدينِ "[٣] .

" الحمد لله الذى خَلَقَ السمواتِ والأَرْضَ وجَعَلَ الظُّلُماتِ والنور[٤] ثم الذين كفروا بِرَبِّهم يَعْدِلون "[٥] .

" وقُلِ الحَمْدُ لله الذى لم يَتَّخِذْ وَلَداً[٤] ولم يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى المُلْكِ ولم يَكُنْ له وَلِيٌّ مِن الذُّلِّ وكَبِّرْهُ تَكْبِيرا "[٦] .

" الحمدُ لله الذى أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكِتَابَ[٤] ولم يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً ، قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْه وَيُبَشِّر المؤمنين الذين يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً ، ماكِثِين فِيهِ أَبَدا ، ويُنْذِرَ الذين قالوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً ، ما لهم بِهِ مِن عِلْمٍ ولا لِآبائِهِم كَبُرَت كلمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِم إِنْ يَقُولُونَ إِلا كَذِبا "[٧] .

" قُلِ الحَمْدُ لِلهِ وَسَلَامٌ على عِبَادِهِ الذِينَ اصْطَفَى اللهُ خَيْرٌ امَّا يُشْرِكون(١) ".

" الحمدُ لله الذى لَهُ ما فِى السَّمَوَاتِ وما فِى الأَرْضِ وله الحَمْدُ فِى الآخِرةِ وهو الحكيمُ الخبِيرُ ، يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِى الأَرْضِ وما يَخْرُجُ مِنْها وما يَنْزِلُ مِنَ السماءِ وما يَعْرُجُ فِيها وهو الرحِيمُ الغَفُورُ " (٢) .

" الحمدُ لِلهِ فَاطِرِ السَّمواتِ والأَرْضِ جَاعِلِ الملائِكَةِ رُسُلاً " (٣) .

الحمد لله معز الإسلام بنصره ومذل الشرك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكافرين بمكره ، الذى قدر الأيام دولا بعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاض على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله ، القاهر فوق عباده فلا يمانع ، والظاهر على خليقته فلاينازع ، والآمر بما يشاء فلا يراجع ؛ والحاكم بما يريد فلا يدافع .

أحمده على إظفاره وإظهاره ، وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره ، وتطهير بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره ، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاده .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه ، وأرضى به ربه .

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، دافع الشرك ، وداحض الإفك ، الذى أسرى بعبده ليلا[١] من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى ، وعرّج به منه إلى السموات العلى ، إلى سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، ما زاغ البصر وما طغى .

...

أيها الناس : أبشروا برضوان الله الذى هو الغاية القصوى ، والدرجة العليا ، لما يسّره الله على أيديكم [٢٩٣] من استرداد هذه الضالة ، من الأمة الضالة ، وردها إلى مقرها من الإسلام بعد ابتذالها فى أيدى المشركين قريبا من مائة عام ، وتطهير هـذا البيت الذى أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه ، وإماطة الشرك عن طرقه ، بعد أن امتد عليها رواقه[٢] واستقر فيها رسمه ، ورفع قواعده بالتوحيد ، فإنه بنى عليه ، وإنه أسس بالتقوى من خلفه ومن بين يديه ، وهو موطن أبيكم إبراهيم ، ومعراج نبيكم محمد عليهما السلام ، وقبلتكم التى كنتم تصلون إليها فى ابتداء الإسلام ، وهو مقر الأنبياء ، ومقصد الأولياء ، ومقر الرسل ، ومهبط الوحى ، ومنزل تنزل الأمر والنهى ، وهو فى أرض المحشر ، وصعيد المنشر[٣] ، وهو فى الأرض المقـدسة التى ذكرها الله فى كتابه المبين ،

وهو المسجد الذى صلى فيه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالملائكة المقربين، وهو البلد الذى بعث الله إليه عبده ورسوله وكلمته التى ألقاها إلى مريم وروحه عيسى، الذى شرّفه الله برسالته، وكرّمه بنبوته [١]، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته [١]، فقال تعالى: "لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ" [٢] وقال: "لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ" [٣].

وهو أول القبلتين، وثانى المسجدين، وثالث الحرمين، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه، ولا تُعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه، ولولا أنكم ممن اختاره الله من عباده، واصطفاه من سكان بلاده، لما خصكم بهذه الفضيلة التى لا يجاريكم فيها مجارٍ، ولا يباريكم فى شرفها مبارٍ [٤]، فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية، والوقعات البدرية، والعزمات الصديقية، والفتوح [٥] العمرية، والجيوش العثمانية، والفتكات العلوية، جددتم للإسلام أيام القادسية، والوقعات اليرموكية، والمنازلات الخيبرية، والهجمات [٦] الخالدية.

فجزاكم الله عن محمد نبيه أفضل الجزاء، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم فى مقارعة الأعداء، وتقبل منا ومنكم ما تقربتم به إليه من مهراق الدماء، وأثابكم الجنة فهى دار السعداء، فاقدروا — رحمكم الله — هذه النعمة [٢٩٤]

حقٌّ قدرها ، وقوموا لله بواجب شكرها ، فله النعمة[١] عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة ، وترشيحكم لهذه الخدمة ، فهذا هو الفتح الذى فتحت له أبواب السماء، وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء ، وابتهج به الملائكة المقربون ، وقرَّ به عيناً[٢] الأنبياء والمرسلون ، فماذا عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيش الذى يفتح عليه البيت المقدس فى آخر الزمان، والجند الذى يقوم بسيوفهم بعد فترة من الرسل[٣] أعلام الإيمان ، فيوشك أن تكون التهانى به بين أهل الحضراء أكثر[٤] من التهانى به بين أهل الغبراء .

أليس هو البيت الذى ذكره الله فى كتابه ، ونصَّ عليه فى خطابه ؟ فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الذِى أَسْرَىَ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلى المَسْجِدِ الأَقْصَى﴾[٥]

أليس هو البيت الذى عظمته الملوك، وأثنت عليه الرسل، وتليت فيه الكتب الأربعة من الحكم عز وجل ؟

أليس هو البيت الذى أمسك الله عز وجل فيه الشمس على يوشع لأجله أن تغرب ، و باعد بين خطواتها ليتيسر فتحه و يقرب ؟

أليس هو البيت الذى أمر الله [تعالى] موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلان ، وغضب عليهم من أجله ، وألقاهم فى التيه عقوبة العصيان ؟

فاحمدوا الله الذى أمضى عزائمكم لما نكلت عنه بنو إسرائيل وقد فضلهم[١] على العالمين، ووفقكم لما خذل عنه أمم ممن كان قبلكم من الأمم الماضية، وجمع كلمتكم وكانت شتى ، وأغناكم بما أمضته كان وقد عن سوف وحتى

فاحفظوا — رحمكم الله — هذه الموهبة فيكم، واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التى من تمسك بها سلم ، ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم ، واحذروا من اتباع [٢٩٥] الهوى ، ومواقف(٥) الردى، ورجوع القهقرى، والنكول عن العدى ، وخذوا فى انتهاز الفرصة، وإزالة ما بقى من الغصة ، وجاهدوا فى الله حق جهاده، وبيعوا أنفسكم عباد الله فى رضاه إذ(٦) جعلكم من عباده(٧) ، وإياكم أن يستذلكم الشيطان ، وأن يتداخلكم الطغيان ، فيخيل إليكم أن هذا النصر بسيوفكم الحداد ، وبخيولكم الجياد، وبجلادكم فى موضع الجلاد ، والله ما النصر إلا من عند الله ، [إن الله عزيز حكيم](١) .

واحذروا — عباد الله — بعد أن شرفكم بهذا الفتح الجليل، والمنح الجزيل، وخصكم بهذا النصر المبين ، وأعلق أيديكم بحبله المتين ، أن تقترفوا كثيرا من مناهيه ، وأن تأتوا عظيما من معاصيه ، فتكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، والذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين، والجهادَ الجهادَ ، فهو أفضل عباداتكم وأشرف عاداتكم ، انصروا الله ينصركم ، اذكروا الله يذكركم، اشكروا الله يزدكم ويشكركم ، جدوا(٢) فى حسم الداء، وقطع شأفة الأعداء ، وتطهير بقية الأرض التى أغضبت الله ورسوله ، واقطعوا فروع الكفر واجتثوا أصوله ، فقد نادت الأيام بالثارات الإسلامية والملة المحمدية .

الله أكبر ، فتح الله ونصر ، وغلب الله وقهر ، وأذل الله من كفر .

واعلموا — رحمكم الله — أن هذه فرصة فانتهزوها ، وفريسة فناجزوها ، ومهمة فأخرجوا إليها هممكم وأبرزوها ، وسيروا(٣) إليها سرايا عزماتكم وجهزوها ، فالأمور بأواخرها ، والمكاسب بذخائرها ، فقد أظفركم الله بهذا العدو المخذول وهم مثلكم أو دون ، فكيف وقد أضحى فى قبالة الواحد منهم منكم عشرون، وقد قال تعالى : ﴿ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾(٤)

أعاننا الله و إياكم على اتباع أوامره والازدجار بزواجره، وأيدنا معشر المسلمين بنصر من عنده ، ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾(١) .

"اللهم وأدم سلطان عبـــدك الخاضع لهيبتك ، الشاكر لنعمتك ، المعترف بموهبتك ، سيفك القاطع ، وشهابك اللامع ، والمحامى عن دينك الدافع، والذابّ عن حرمك [وحرم رسولك](٢) المـانع ، السيد الأجل(٣) الملك الناصر جامع كلمة الإيمان ، وقامع عبدة الصلبان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، مطهر البيت المقدس، أبى المظفر يوسف [صلاح الدين] بن أيوب، محيي دولة أمير المؤمنين .

اللهم عمّ بدولته البسيطة ، واجعـــل ملائكتك براياته محيطة ، وأحسن عن الدين الحنيفى جزاءه ، واشكر عن الملة المحمدية عزمه ومضاءه .

اللهم أبق للإسلام مهجته ، ووق للإيمان حوزته ، وانشر فى المشارق والمغارب دعوته .

اللهم فكما فتحت على يديه البيت المقدس، بعد أن ظنت [به] الظنون، وابتلى المؤمنون ، فافتح على يديه دانى الأرض وقواصيها ، وملكه صياصى الكفر

وبواصيه . فلا يبقى منهم كتيبة إلا مرقها ، ولا جمع إلا فرقها ، ولا طائفة بعد طائفة[٣] إلا ألحقها بمن سبقها .

اللهم اشكر عن محمد — صلى الله عليه وسلم — سعيه ، وأنفذ فى المشارق والمغارب أمره ونهيه ، وأصلح به أوساط البلاد وأطرافها وأرجاء الممالك وأكنافها .

اللهم ذلل به معاطس[٤] الكفار ، وأرغم به أنوف الفجار ، وانشر ذوائب ملكه على الأمصار ، واثبث سرايا جنوده فى سبيل الأقطار .

اللهم ثبت الملك فيه وفى عقبه إلى يوم الدين ، واحفظه فى بنيه وبنى أبيه الملوك الميامين ، واشدد عضده ببقائهم ، واقص باعزاز أوليائه وأوليائهم .

اللهم فكما أجريت على يده فى الإسلام[٥] هذه الحسنة التى تبقى على الأيام ، وتتخلد على مرور الشهور والأعوام ، فارزقه الملك الأبدى الذى لا ينفد فى دار المتقين ، وأجب دعوته ودعاءه فى قوله : ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ، وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ ، وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ [٢٩٧] فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾[٦] .

من مقدمة ابن خلدون

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ فَنَّ التَّارِيْخِ مِنَ الْفُنُوْنِ الَّتِي تَتَدَاوَلُهُ[١] الأُمَمُ وَالأَجْيَالُ، وتُشَدُّ إِلَيْهِ الرَّكَائِبُ وَالرِّحَالُ، وَتَسْمُو إِلَى مَعْرِفَتِهِ السُّوْقَةُ وَالأَغْفَالُ[٢]، وَتَتَنَافَسُ فِيْهِ الْمُلُوْكُ وَالأَقْيَالُ[٣]، وَيَتَسَاوَى[٤] فِي فَهْمِهِ الْعُلَمَاءُ وَالْجُهَّالُ، إِذْ هُوَ فِي ظَاهِرِهِ لاَ يَزِيْدُ عَلَى أَخْبَارٍ عَنِ الأَيَّامِ وَالدُّوَلِ، وَالسَّوَابِقِ مِنَ الْقُرُوْنِ الأُوَلِ، تَنْمُو فِيْهَا الأَقْوَالُ، وَتُضْرَبُ فِيْهَا الأَمْثَالُ، وَتُطْرَفُ بِهَا الأَنْدِيَةُ إِذَا غَصَّهَا الاحْتِفَالُ، وَتُؤَدِّي لَنَا[٥] شَأْنَ الْخَلِيقَةِ كَيْفَ تَقَلَّبَتْ بِهَا الأَحْوَالُ، وَاتَّسَعَ لِلدُّوَلِ النِّطَاقُ فِيْهَا وَالْمَجَالُ، وَعَمَّرُوا الأَرْضَ حَتَّى نَادَى بِهِمُ الارْتِحَالُ، وَحَانَ مِنْهُمُ الْزَّوَالُ، وَفِي بَاطِنِهِ نَظَرٌ وَتَحْقِيْقٌ، وَتَعْلِيْلٌ لِلْكَائِنَاتِ ومبَادِيهَا دَقِيْقٌ، وَعِلْمٌ بِكَيْفِيَّاتِ الْوَقَائِعِ[٦] وَأَسْبَابِهَا عَمِيْقٌ، فَهُوَ لِذَلِكَ أَصِيْلٌ فِي الْحِكْمَةِ عَرِيْقٌ، وَجَدِيْرٌ بِأَنْ يُعَدَّ فِي عُلُوْمِهَا وَخَلِيْقٌ.

اِعْلَمْ أَنَّ فَنَّ التَّارِيْخِ فَنٌّ عَزِيْزُ الْمَذْهَبِ، جَمُّ الْفَوَائِدِ، شَرِيْفُ الْغَايَةِ، إِذْ هُوَ يُوْقِفُنَا عَلَى أَحْوَالِ الْمَاضِيْنَ مِنَ الأُمَمِ فِي أَخْلاَقِهِمْ[٢]، وَالأَنْبِيَاءِ فِي سِيَرِهِمْ، وَالْمُلُوْكِ فِي دُوَلِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ. حَتَّى تَتِمَّ فَائِدَةُ الاقْتِدَاءِ فِي ذَلِكَ لِمَنْ يَرُوْمُهُ[٣] فِي أَحْوَالِ الدِّيْنِ وَالدُّنْيَا، فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى مَآخِذَ[٤] مُتَعَدِّدَةٍ وَمَعَارِفَ مُتَنَوِّعَةٍ وَحُسْنِ نَظَرٍ وَتَثَبُّتٍ، يُفْضِيَانِ[٥] بِصَاحِبِهِمَا إِلَى الْحَقِّ، وَيُنَكِّبَانِ[٦] بِهِ عَنِ الْمَزِلاَّتِ وَالْمَغَالِطِ، لأَنَّ الأَخْبَارَ إِذَا اعْتُمِدَ فِيْهَا عَلَى مُجَرَّدِ النَّقْلِ، وَلَمْ تُحَكَّمْ أُصُوْلُ الْعَادَةِ وَقَوَاعِدُ السِّيَاسَةِ وَطَبِيْعَةُ الْعُمْرَانِ وَالأَحْوَالُ فِي الاجْتِمَاعِ الإِنْسَانِي، وَلاَ قِيْسَ الْغَائِبُ مِنْهَا بِالشَّاهِدِ وَالْحَاضِرُ بِالذَّاهِبِ، فَرُبَّمَا لَمْ يُؤْمَنْ فِيْهَا مِنَ الْعُثُوْرِ وَمَزِلَّةِ الْقَدَمِ وَالْحَيَدِ عَنْ جَادَّةِ الصِّدْقِ.

وَكَثِيْراً مَا وَقَعَ لِلْمُؤَرِّخِيْنَ [ظ٣/٢] وَالْمُفَسِّرِيْنَ وَأَئِمَّةِ النَّقْلِ مِنَ **الْمَغَالِطِ** فِي الْحِكَايَاتِ وَالْوَقَائِعِ لاعْتِمَادِهِمْ فِيْهَا عَلَى مُجَرَّدِ النَّقْلِ غَثّاً أَوْ سَمِيناً، وَلَمْ يَعْرِضُوْهَا عَلَى أُصُوْلِهَا، وَلا قَاسُوْهَا بِأَشْبَاهِهَا، وَلاَ سَبَرُوْهَا بِمِعْيَارِ الْحِكْمَةِ وَالْوُقُوْفِ عَلَى طَبَائِعِ الْكَائِنَاتِ وَتَحْكِيْمِ النَّظَرِ وَالْبَصِيْرَةِ فِي الأَخْبَارِ، فَضَلُّوا عَنِ الْحَقِّ، وَتَاهُوا فِي بَيْدَاءِ[٧] الْوَهْمِ وَالْغَلَطِ، وَلاَ سِيَمَا فِي إِحْصَاءِ الأَعْدَادِ مِنَ الأَمْوَالِ وَالْعَسَاكِرِ إِذَا عَرَضَتْ فِي الْحِكَايَاتِ إِذْ هِيَ مَظِنَّةُ الْكَذِبِ وَمَطِيَّةُ الْهَذَرِ[٨]، وَلاَ بُدَّ مِنْ رَدِّهَا إِلَى الأُصُوْلِ، وَعَرْضِهَا عَلَى الْقَوَاعِدِ، وَهَذَا كَمَا نَقَلَ

وَمِنَ الْحِكَايَاتِ الْمَدْخُوْلَةِ لِلْمُؤَرِّخِيْنَ مَا يَنْقُلُوْنَهُ كَافَّةً فِي سَبَبِ **نَكْبَةِ الرَّشِيْدِ لِلْبَرَامِكَةِ** مِنْ قِصَّةِ **الْعَبَّاسَةِ** أُخْتِهِ مَعَ **جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدَ** مَوْلاَهُ، وَأَنَّهُ لِكَلَفِهِ بِمَكَانِهِمَا مِنْ مُعَاقَرَتِهِ إِيَّاهُمَا الْخَمْرَ، أَذِنَ لَهُمَا فِي عَقْدِ النِّكَاحِ دُوْنَ الْخَلْوَةِ، حِرْصاً عَلَى اجْتِمَاعِهِمَا فِي مَجْلِسِهِ، وَأَنَّ الْعَبَّاسَةَ تَحَيَّلَتْ عَلَيْهِ فِي الْتِمَاسِ الْخَلْوَةِ بِهِ؛ لِمَا شَغَفَهَا مِنْ حُبِّهِ حَتَّى وَاقَعَهَا - زَعَمُوا فِي حَالَةِ السُّكْرِ - فَحَمَلَتْ، وَوُشِيَ بِذَلِكَ لِلرَّشِيْدِ فَاسْتَغْضَبَ.

وَهَيْهَاتَ ذَلِكَ مِنْ مَنْصِبِ الْعَبَّاسَةِ فِي دِيْنِهَا وَأَبَوَيْهَا وَجَلاَلِهَا، وَأَنَّهَا بِنْتُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلاَّ أَرْبَعَةُ رِجَالٍ هُمْ أَشْرَافُ الدِّيْنِ وَعُظَمَاءُ الْمِلَّةِ مِنْ بَعْدِهِ.

وَ**الْعَبَّاسَةُ** بِنْتُ مُحَمَّدٍ الْمَهْدِيِّ بْنِ عَبْدِ اللهِ أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُوْرِ بْنِ مُحَمَّدٍ السَّجَّادِ بْنِ عَلِي أَبِي الْخُلَفَاءِ بْنِ عَبْدِ اللهِ تُرْجُمَانِ الْقُرْآنِ ابْنِ الْعَبَّاسِ عَمِّ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، ابْنَةُ خَلِيْفَةٍ، وأُخْتُ خَلِيْفَةٍ[ظ٤/٢]، مَحْفُوْفَةٌ بِالْمُلْكِ الْعَزِيْزِ وَالْخِلاَفَةِ النَّبَوِيَّةِ وَصُحْبَةِ الرَّسُوْلِ وَعُمُوْمَتِهِ وَإِمَامَةِ[١] الْمِلَّةِ وَنُوْرِ الْوَحْيِ وَمَهْبِطِ الْمَلاَئِكَةِ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهَا، قَرِيْبَةُ عَهْدٍ بِبَدَاوَةِ الْعُرُوْبِيَّةِ وَسَذَاجَةِ[٢] الدِّيْنِ الْبَعِيْدَةِ عَنْ عَوَائِدِ التَّرَفِ وَمَرَاتِعِ الْفَوَاحِشِ، فَأَيْنَ يُطْلَبُ الصَّوْنُ وَالْعَفَافُ إِذَا ذَهَبَ عَنْهَا؟! أَوْ أَيْنَ تُوْجَدُ الطَّهَارَةُ وَالزَّكَاءُ[٣] إِذَا فُقِدَا مِنْ بَيْتِهَا؟! أَوْ كَيْفَ تَلْحُمُ نَسَبَهَا بِجَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى **وَتُدَنِّسُ شَرَفَهَا الْعَرَبِيَّ بِمَوْلًى مِنْ مَوَالِي الْعَجَمِ** بِمِلْكَةِ جَدِّهِ مِنَ الْفُرْسِ؟! أَوْ بِوَلاَءِ جَدِّهَا مِنْ عُمُوْمَةِ الرَّسُوْلِ وَأَشْرَافِ قُرَيْشٍ؟! وَغَايَتُهُ أَنْ جَذَبَتْ دَوْلَتَهُمْ بِضَبْعِهِ وَضَبْعِ أَبِيْهِ[٤]، وَاسْتَخْلَصَتْهُمْ وَرَقَّتْهُمْ إِلَى مَنَازِلِ الأَشْرَافِ، وَكَيْفَ يَسُوْغُ مِنَ الرَّشِيْدِ أَنْ يُصْهِرَ إِلَى مَوَالِي الأَعَاجِمِ عَلَى بُعْدِ هِمَّتِهِ وَعِظَمِ آبَائِهِ؟! وَلَوْ نَظَرَ الْمُتَأَمِّلُ فِي ذَلِكَ نَظَرَ الْمُنْصِفِ، وَقَاسَ الْعَبَّاسَةَ بِابْنَةِ مَلِكٍ مِنْ عُظَمَاءِ مُلُوْكِ زَمَانِهِ لاسْتَنْكَفَ لَهَا عَنْ مِثْلِهِ مَعَ مَوْلًى مِنْ مَوَالِي دَوْلَتِهَا وفِي سُلْطَانِ قَوْمِهَا، وَاسْتَنْكَرَهُ وَلَجَّ[٥] فِي تَكْذِيْبِهِ، وَأَيْنَ قَدْرُ الْعَبَّاسَةِ وَالرَّشِيْدِ مِنَ النَّاسِ!!

وَإِنَّمَا **نَكْبُ الْبَرَامِكَةِ** مَا كَانَ مِن اسْتِبْدَادِهِمْ عَلَى الدَّوْلَةِ وَاحْتِجَانِهِمْ[٦] أَمْوَالَ الْجِبَايَةِ، حَتَّى كَانَ الرَّشِيْدُ يَطْلُبُ الْيَسِيْرَ مِنَ الْمَالِ فَلاَ يَصِلُ إِلَيْهِ، فَغَلَبُوْهُ عَلَى أَمْرِهِ، وَشَارَكُوْهُ فِي سُلْطَانِهِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَعَهُمْ تَصَرُّفٌ فِي أُمُوْرِ مُلْكِهِ، فَعَظُمَتْ آثَارُهُمْ، وَبَعُدَ صِيْتُهُمْ، وَعَمَّرُوا مَرَاتِبَ الدَّوْلَةِ وَخِطَطَهَا[٧] بِالرُّؤَسَاءِ مِنْ وُلْدِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ، وَاحْتَازُوْهَا عَمَّنْ سِوَاهُمْ مِنْ وِزَارَةٍ وَكِتَابَةٍ وَقِيَادَةٍ وَحِجَابَةٍ وَسَيْفٍ وَقَلَمٍ.

يُقَالُ: إِنَّهُ كَانَ بِدَارِ الرَّشِيْدِ مِنْ وَلَدِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ خَمْسَةٌ وَعِشْرُوْنَ رَئِيساً مِنْ بَيْنِ صَاحِبِ سَيْفٍ وَصَاحِبِ قَلَمٍ، زَاحَمُوا فِيْهَا أَهْلَ الدَّوْلَةِ بِالْمَنَاكِبِ، وَدَفَعُوهُمْ عَنْهَا

بالْرَّاحِ[١]؛ لِمَكَانِ أَبِيهِمْ يَحْيَى مِنْ كَفَالَةِ هَارُوْنَ وَلِيِّ عَهْدٍ وَخَلِيْفَةٍ، حَتَّى شَبَّ فِي حُجْرِهِ، وَدَرَجَ مِنْ عُشِّهِ، وَغَلَبَ عَلَى أَمْرِهِ، وَكَانَ يَدْعُوْهُ: يَا أَبْتِ، فَتَوَجَّهَ الإِيْثَارُ مِنَ السُّلْطَانِ إِلَيْهِمْ، وَعَظُمَت الْدَّالَّةُ مِنْهُمْ، وَانْبَسَطَ الْجَاهُ عِنْدَهُمْ، وَانْصَرَفَتْ نَحْوَهُمُ الْوُجُوْهُ، وَخَضَعَتْ لَهُمُ الْرِّقَابُ، وَقَصِرَتْ عَلَيْهِمُ الآمَالُ، وَتَخَطَّتْ إِلَيْهِمْ مِنْ أَقْصَى التُّخُوْمِ هَدَايَا الْمُلُوْكِ وَتُحَفُ الأُمَرَاءِ، وَتَسَرَّبَتْ[٢] إِلَى خزَائِنِهِمْ فِي سَبِيْلِ الْتَزَلُّفِ وَالاسْتِمَالَةِ أَمْوَالُ الْجبَايَةِ، وَأَفَاضُوا فِي رِجَالِ الْشِّيعَةِ[٣] وَعُظَمَاءِ الْقَرَابَةِ الْعَطَاءَ، وَطَوَّقُوْهُمْ الْمِنَنَ، وَكَسِبُوا مِنْ بُيُوْتَاتِ الأَشْرَافِ الْمُعْدَمَ، وَفَكُّوا الْعَانِيَ[٤]، وَمُدِحُوا بِمَا لَمْ يُمْدَحْ بِهِ خَلِيْفَتُهُمْ، وَأَسْنُوا[٥] لِعُفَاتِهِمْ[٦] الجَوَائِزَ وَالْصِّلاَتِ، وَاسْتَوْلُوا عَلَى الْقُرَى وَالضِّيَاعِ مِنَ الْضَّوَاحِي وَالأَمْصَارِ فِي سَائِرِ الْمَمَالِكِ، حَتَّى أَسَفُّوا[٧] الْبِطَانَةَ، وَأَحْقَدُوا الْخَاصَّةَ، وَأَغَصُّوا أَهْلَ الْوِلاَيَةِ، فَكُشِفَتْ لَهُمْ وُجُوْهُ الْمُنَافَسَةِ وَالْحَسَدِ، ودبت إلى مهادهم الوثير من الدولة عقاربُ السِّعاية، حتى لقد كان بنو قحطبة أخوالُ جعفر من أعظم السَّاعين عليهم، لم تعطفهم ـ لَمَا وقرَ في نفوسهم من الحسد ـ عَوَاطِفُ الْرَّحِمِ، وَلاَ وَزَعَتْهُمْ أَوَاصِرُ الْقَرَابَةِ، **وَقَارَنَ ذَلِكَ** عِنْدَ مَخْدُوْمِهِمْ نَوَاشِيءَ الْغِيْرَةِ وَالاسْتِنْكَافِ مِنَ الْحَجْرِ وَالأَنَفَةِ، وَكَامِنِ[٨] الْحُقُودِ الَّتِي بَعَثَتْهَا مِنْهُمْ صَغَائِرُ الْدَّالَّةِ، وَانْتَهَى [ظ٥/١] بِهَا الإِصْرَارُ عَلَى شَأْنِهِمْ إِلَى كَبَائِرِ الْمُخَالَفَةِ كَقِصَّتِهِمْ فِي يَحْيَى بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ[٩] بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَخِي مُحَمَّدٍ الْمَهْدِيِّ الْمُلَقَّبِ **بِالْنَّفْسِ الْزَّكِيَّةِ** الْخَارِجِ عَلَى الْمَنْصُوْرِ، وَيَحْيَى هَذَا هُوَ الَّذِي اسْتَنْزَلَهُ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى مِنْ بِلاَدِ الْدَّيْلَمِ عَلَى أَمَانِ الْرَّشِيْدِ بِخَطِّهِ، وَبَذَلَ لَهُمْ فِيْهِ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الْطَّبَرِيُّ، وَدَفَعَهُ الْرَّشِيْدُ إِلَى جَعْفَرٍ، وَجَعَلَ اعْتِقَالَهُ بِدَارِهِ

وَإِلَى نَظَرِهِ، فَحَبَسَهُ مُدَّةً، ثُمَّ حَمَلَتْهُ الدَّالَّةُ عَلَى تَخْلِيَةِ سَبِيْلِهِ، وَالاسْتِبْدَادِ[١] بِحَلِّ عِقَالِهِ، حَرْماً لِدِمَاءِ أَهْلِ الْبَيْتِ بِزَعْمِهِ، وَدَالَّةً عَلَى السُّلْطَانِ فِي حُكْمِهِ. وَسَأَلَهُ الرَّشِيْدُ عَنْهُ لَمَّا وُشِيَ بِهِ إِلَيْهِ، فَفَطِنَ وَقَالَ: أَطْلَقْتُهُ، فَأَبْدَى لَهُ وَجْهَ الاسْتِحْسَانِ، وَأَسَرَّهَا فِي نَفْسِهِ، فَأَوْجَدَ السَّبِيْلَ بِذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ، حَتَّى ثُلَّ عَرْشُهُمْ، وَأُلْقِيَتْ عَلَيْهِمْ سَمَاؤُهُمْ، وَخَسَفَتِ الأَرْضُ بِهِمْ وَبِدَارِهِمْ، وَذَهَبَتْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلآخِرِيْنَ أَيَّامُهُمْ، وَمَنْ تَأَمَّلَ مِنْ أَخْبَارِهِمْ، وَاسْتَقْصَى سِيَرَ الدَّوْلَةِ وَسِيَرَهُمْ، وَجَدَ ذلِكَ: مُحَقَّقَ الأَثَرِ، مُمَهَّدَ الأَسْبَابِ.

وَأَمَّا مَا تُمَوَّهُ بِهِ الْحِكَايَةُ مِنْ **مُعَاقَرَةِ الرَّشِيْدِ الْخَمْرَ** وَاقْتِرَانِ سُكْرِهِ بِسُكْرِ النَّدْمَانِ، فَحَاشَا لله مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ، وَأَيْنَ هَذَا مِنْ حَالِ الرَّشِيْدِ وَقِيَامِهِ بِمَا يَجِبُ لِمَنْصِبِ الْخِلاَفَةِ مِنَ الدِّيْنِ وَالْعَدَالَةِ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ صَحَابَةِ الْعُلَمَاءِ وَالأَوْلِيَاءِ وَمُحَاوَرَاتِهِ لِلْفُضَيْلِ ابْنِ عِيَاضٍ وَابْنِ السَّمَّاكِ[٤] وَالْعُمَرِيِّ[٥] وَمُكَاتَبَتِهِ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، وَبُكَائِهِ مِنْ مَوَاعِظِهِمْ، وَدُعَائِهِ بِمَكَّةَ فِي طَوَافِهِ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْعِبَادَةِ وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ وَشُهُوْدِ الصُّبْحِ لأَوَّلِ وَقْتِهَا.

حَكَى الطَّبَرِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِئَةَ رَكْعَةٍ نَافِلَةً، وَكَانَ يَغْزُو عَاماً وَيَحُجُّ عَاماً وَلَقَدْ زَجَرَ ابْنَ أَبِي مَرْيَمَ مُضْحِكَهُ فِي سَمَرِهِ حِيْنَ تَعَرَّضَ لَهُ بِمِثْلِ ذَلِكَ فِي الصَّلاَةِ لَمَّا سَمِعَهُ يَقْرَأُ: ﴿وَمَالِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾[يس:٢٢] وَقَالَ: وَاللهِ مَا أَدْرِي لِمَ؟ فَمَا تَمَالَكَ الرَّشِيْدُ أَنْ ضَحِكَ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْهِ مُغْضَباً. وَقَالَ: يَا ابْنَ أَبِي مَرْيَمَ فِي الصَّلاَةِ أَيضاً!! إِيَّاكَ إِيَّاكَ وَالْقُرْآنَ وَالدِّيْنَ، وَلَكَ مَا شِئْتَ بَعْدَهُمَا.

وَإِنَّمَا كَانَ الرَّشِيْدُ يَشْرَبُ نَبِيْذَ التَّمْرِ عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَفَتَاوِيْهِمْ فِيهَا مَعْرُوْفَةٌ.

وَأَمَّا الْخَمْرُ الصِّرْفُ فَلاَ سَبِيْلَ إِلَى اتِّهَامِهِ بِهَا[٣]، وَلاَ تَقْلِيْدِ الأَخْبَارِ الْوَاهِيَةِ فِيْهَا، فَلَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ بِحَيْثُ يُوَاقِعُ مُحَرَّماً مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ عِنْدَ أَهْلِ الْمِلَّةِ، وَلَقَدْ كَانَ أُولَئِكَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ بِمَنْجَاةٍ مِنِ ارْتِكَابِ السَّرَفِ وَالتَّرَفِ فِي مَلاَبِسِهِمْ وَزِيْنَتِهِمْ وَسَائِرِ مُتَنَاوَلاَتِهِمْ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ خُشُونَةِ الْبَدَاوَةِ وَسَذَاجَةِ الدِّيْنِ الَّتِي لَمْ يُفَارِقُوْهَا بَعْدُ فَمَا ظَنُّكَ بِمَا يَخْرُجُ عَنِ الإِبَاحَةِ إِلَى الْحَظْرِ، وَعَنِ الْحِلَّةِ[٤] إِلَى الْحُرْمَةِ.

وَيُنَاسِبُ هَذَا ـ أَوْ قَرِيْبٌ مِنْهُ ـ مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَّةً عَنْ **يَحْيَى بْنِ أَكْثَمَ قَاضِي الْمَأْمُوْنِ** وَصَاحِبِهِ، وَأَنَّهُ كَانَ يُعَاقِرُ الْخمْرَ، وَأَنَّهُ سَكِرَ لَيْلَةً مَعَ شَرْبِهِ، فَدُفِنَ فِي الرِّيْحَانِ حَتَّى أَفَاقَ، وَيُنْشِدُوْنَ عَلَى لِسَانِهِ:

يَا سَيِّدِي وَأَمِيرَ النَّاسِ كُلِّهِمِ ... قَدْ جَارَ فِي حُكْمِهِ مَنْ كَانَ يَسْقِيْنِي

إِنِّي غَفَلْتُ عَنْ السَّاقِي فَصَيَّرَنِي ... كَمَا تَرَانِي سَلِيْبَ الْعَقْلِ وَالدِّيْنِ

وَحَالُ ابْنِ أَكْثَمَ وَالْمَأْمُوْنِ فِي ذَلِكَ مِنْ حَالِ الرَّشِيْدِ، وَشَرَابُهُمْ إِنَّمَا كَانَ النَّبِيْذَ[١]، وَلَمْ يَكُنْ مَحْظُوْراً عِنْدَهُمْ، وَأَمَّا السُّكْرُ فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَصَحَابَتُهُ لِلْمَأْمُوْنِ إِنَّمَا كَانَتْ خُلَّةً فِي الدِّيْنِ، وَلَقَدْ ثَبُتَ أَنَّهُ كَانَ يَنَامُ مَعَهُ فِي الْبَيْتِ، وَنُقِلَ فِي فَضَائِلِ الْمَأْمُوْنِ وَحُسْنِ عُشْرَتِهِ أَنَّهُ انْتَبَهَ ذَاتَ لَيْلَةٍ عَطْشَانَ فَقَامَ يَتَحَسَّسُ وَيَلْتَمِسُ الإِنَاءَ مَخَافَةَ أَنْ يُوْقِظَ يَحْيَى بْنَ أَكْثَمَ، وَثَبُتَ أَنَّهُمَا كَانَا يُصَلِّيَانِ الصُّبْحَ جَمِيعاً[٢]، فَأَيْنَ هَذَا مِنَ الْمُعَاقَرَةِ؟!.

وَأَيضاً: فَإِنَّ يَحْيَى بْنَ أَكْثَمَ كَانَ مِنْ عِلْيَةِ أَهْلِ الْحَدِيْثِ، وَقَدْ أَثْنَى عَلَيْهِ الإِمَامُ أَحْمَدُ ابْنُ حَنْبَلٍ وَإِسْمَاعِيْلُ الْقَاضِي، وَخَرَّجَ عنه التِّرْمِذِيُّ [فِي] كِتَابِهِ الْجَامِعِ[٣]. وَذَكَرَ الْمِزِّيُّ[٤] الْحَافِظُ: أَنَّ الْبُخَارِي رَوَى عَنْهُ فِي غَيْرِ الْجَامِعِ. فَالْقَدْحُ فِيْهِ قَدْحٌ فِي جَمِيْعِهِمْ.

وَكَذَلِكَ مَا يَنْبُزُهُ بِهِ الْمُجَّانُ[٥] بِالْمَيْلِ إِلَى الْغِلْمَانِ بُهْتَاناً عَلَى اللهِ، وَفِرْيَةً عَلَى الْعُلَمَاءِ، وَيَسْتَنِدُوْنَ فِي ذَلِكَ إِلَى أَخْبَارِ الْقُصَّاصِ الْوَاهِيَةِ الَّتِي لَعَلَّهَا مِنِ افْتِرَاءِ أَعْدَائِهِ، فَإِنَّهُ **كَانَ مَحْسُوْداً فِي كَمَالِهِ وَخِلَّتِهِ لِلسُّلْطَانِ**، وَكَانَ مَقَامُهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالدِّيْنِ مُنَزَّهاً عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ. وَقَدْ[٦] ذُكِرَ لابْنِ حَنْبَلٍ مَا يَرْمِيْهِ بِهِ النَّاسُ فَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ سُبْحَانَ اللهِ، وَمَنْ يَقُوْلُ

هَذَا؟! وَأَنْكَر ذَلِكَ إِنْكَاراً شَدِيداً. وَأَثْنى عَلَيْهِ إِسْمَاعِيْلُ الْقَاضِي، فَقِيْلَ لَهُ مَا كَانَ يُقَالُ فِيْهِ، فَقَالَ: مَعَاذَ ا للهِ أَنْ تَزُوْلَ عَدَالَةُ مِثْلِهِ بتكْذِيْبِ بَاغٍ وَحَاسِدٍ. وَقَالَ أَيضاً: [كان][1] يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ أَبْرَأَ إِلَى ا للهِ مِنْ أَنْ يَكُوْنَ فِيْهِ شَيءٌ مِمَّا كَانَ يُرْمَى بِهِ مِنْ أَمْرِ الْغِلْمَان، وَلَقَدْ كُنْتُ أَقِفُ عَلَى سَرَائِرِهِ فَأَجِدُهُ شَدِيْدَ الْخَوْفِ مِنَ ا للهِ لَكِنَّهُ كَانَتْ فِيْهِ دُعَابَةٌ وَحُسْنُ خَلْق فَرُمِيَ بِمَا رُمِيَ بِهِ وذكره ابْنُ حِبَّانٍ فِي الثِّقَاتِ[2] وَقَالَ: لاَ يُشْتَغَلُ بِمَا يُحْكَى عَنْهُ لأَنَّ أَكْثَرَهَا لاَ يَصِحُّ عَنْهُ.

وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ كَثِيْرَة، وَفِي كُتُبِ الْمُؤَرِّخِيْنَ مَعرُوْفَةٌ.

وَإِنَّمَا **يَبْعَثُ عَلَى وَضْعِهَا** وَالْحَدِيْث بِهَا الإِنْهِمَاكُ فِي اللَّذَّات الْمُحَرَّمَة، وَهَتْك قناعِ الْمُخَدَّرَات[1]، وَيَتَعَلَّلُونَ بِالتَّأَسِّي بِالْقَوْمِ فِيْمَا يَأْتُوْنَهُ مِنْ طَاعَة لَذَّاتِهِمْ، فَلِذَلِكَ تَرَاهُمْ كَثِيْراً مَا يَنْهَجُوْنَ[2] بِأَشْبَاه هَذه الأَخْبَار، وَيُنَقِّرُوْنَ عَنْهَا عِنْدَ تَصَفُّحِهِمْ لأَوْرَاق الدَّوَاوِيْن، وَلَوْ ائتَسَوا بِهِمْ فِي غَيْر هَذَا مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَصِفَات الْكَمَالِ اللائِقَة بِهِمْ الْمَشْهُوْرَة عَنْهُمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُوْنَ.

وَلَقَدْ عَذَلْتُ[3] يَوْماً بَعْضَ الأُمَرَاء مِنْ أَبْنَاء الْمُلُوك فِي كَلَفه بتعَلُّم الْغِنَاء وَوَلُوْعه بالأَوْتَار. وَقُلْتُ لَهُ: لَيْسَ هَذَا مِنْ شَأْنِكَ وَلاَ يَلِيْقُ بِمَنْصِبِكَ، فَقَالَ لِي: أَفَلاَ تَرَى إِلَى إِبْرَاهِيْمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ كَيْفَ كَانَ إِمَامَ هَذه الصِّنَاعَة وَرَئِيسَ الْمُغَنِّيْنَ فِي زَمَانه؟! فَقُلْتُ لَهُ: يَا سُبْحَانَ اللهِ، وَهَلاَّ تَأَسَّيْتَ بِأَبِيْهِ و[4] أَخِيْه!! أَوَمَا رَأَيْتَ كَيْفَ قَعَدَ ذَلِكَ بِإِبْرَاهِيْمَ عَنْ مَنَاصِبِهِمْ؟! فَصَمَّ عَنْ عَذلِي وَأَعْرَضَ، ﴿ واللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[البقرة: ٢١٣].

وَقَدْ كِدْنَا أَنْ نَخْرُجَ عَنْ غَرَضِ الْكِتَابِ بِالإِطْنَابِ فِي ذِكْرِ هَذِهِ الْمَغَالِطِ، فَقَدْ زَلَّتْ أَقْدَامُ كَثِيْرٍ مِنَ الأَثْبَاتِ وَالْمُؤَرِّخِيْنَ الْحُفَّاظِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الأَحَادِيثِ وَالآرَاءِ، وَعَلِقَتْ أَفْكَارُهُمْ، وَنَقَلَهَا عَنْهُمُ الْكَافَّةُ مِنْ ضَعْفَةِ النَّظَرِ وَالْغَفْلَةِ عَنِ الْقِيَاسِ، وَتَلَقَّوْهَا هُمْ أَيضاً كَذَلِكَ مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ وَلاَ رَوِيَّةٍ، وَانْدَرَجَتْ فِي مَحْفُوْظَاتِهِمْ حَتَّى صَارَ **فَنُّ التَّارِيْخِ** وَاهِياً مُخْتَلِطاً، وَنَاظِرُهُ مُرْتَبِكاً، وَعُدَّ مِنْ مَنَاحِي الْعَامَّةِ فَلِذا **يَحْتَاجُ صَاحِبُ هَذَا الْفَنِّ إِلَى الْعِلْمِ** بِقَوَاعِدِ السِّيَاسَةِ وَطَبَائِعِ الْمَوْجُوْدَاتِ وَاخْتِلاَفِ الأُمَمِ وَالْبِقَاعِ وَالأَعْصَارِ فِي السِّيَرِ وَالأَخْلاَقِ وَالْعَوَائِدِ وَالنِّحَلِ وَالْمَذَاهِبِ وَسَائِرِ الأَحْوَالِ وَالإِحَاطَةِ بِالْحَاضِرِ مِنْ ذَلِكَ وَمُمَاثَلَةِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْغَائِبِ مِنَ الْوِفَاقِ أَوْ بَوْنِ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْخِلاَفِ، وَتَعْلِيْلِ الْمُتَّفِقِ مِنهَا وَالْمُخْتَلِفِ، وَالْقِيَامِ عَلَى أُصُوْلِ الدُّوَلِ وَالْمِلَلِ، وَمَبَادِىءِ ظُهُورِهَا، وَأَسْبَابِ حُدُوْثِهَا، وَدَوَاعِي كَوْنِهَا، وَأَحْوَالِ الْقَائِمِيْنَ بِهَا وَأَخْبَارِهِمْ حَتَّى يَكُوْنَ مُسْتَوْعِباً لأَسْبَابِ كُلِّ حادثٍ، واقفاً على أصول كلِّ خبر[1]؛ وَحِيْنَئِذٍ **يَعْرِضُ خَبَرَ الْمَنْقُوْلِ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنَ الْقَوَاعِدِ وَالأُصُوْلِ فَإِنْ وَافَقَهَا وَجَرَى عَلَى مُقْتَضَاهَا كَانَ صَحِيْحاً وَإِلاَّ زَيَّفَهُ وَاسْتَغْنَى عَنْهُ.**

مَا اسْتَكْبَرَ الْقُدَمَاءُ عِلْمَ التَّارِيْخِ إِلاَّ لِذَلِكَ حَتَّى انْتَحَلَهُ **الطَّبَرِيُّ وَالْبُخَارِيُّ وَابْنُ إِسْحَاقَ مِنْ قَبْلِهِمَا وَأَمْثَالُهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ الأُمَّةِ**، وَقَدْ ذَهَلَ الْكَثِيْرُ عَنْ هَذَا السِّرِّ فِيْهِ حَتَّى صَارَ انْتِحَالُهُ مَجْهَلَةً، وَاسْتَخَفَّ الْعَوَامُّ وَمَنْ لاَ رُسُوْخَ لَهُ فِي الْمَعَارِفِ مُطَالَعَتَهُ وَحَمْلَهُ وَالْخَوْضَ فِيْهِ وَالتَّطَفُّلَ عَلَيْهِ؛ فَاخْتَلَطَ الْمَرْعِيُّ بِالْهَمَلِ، وَاللُّبَابُ بِالْقِشْرِ، وَالصَّادِقُ بِالْكَاذِبِ ﴿وَإِلَى اللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾[لقمان: ٢٢].

محتويات الكتاب

الموضـــوع	رقم الصفحة
توصيف المقرر	٣
بين يدي النصوص	٧
سورة الفاتحة	١١
تحليل سورة (العلق) للأستاذ الدكتور / أحمد درويش	١٩
مـصـــــر لحافظ إبراهيم	٣١
الطاقة الشمسية لمحمد المخزنجي	٣٧
قصيدة «الخيول» لأمل دُنقل	٤١
العصفورُ والسلكُ ليوسف إدريس	٤٥
قصيدة «نفثة» للعقَّاد	٤٧
قصيدة «الْجَدَّة» لأحمد شوقي	٤٩
القرآن للشيخ محمد عبده	٥١
المسرح لعلي مبارك	٥٣
في حبِّ الوطن لرفاعة الطهطاوي	٥٧
مدينة القاهرة (مصر) _لابن بطوطة	٥٩
جارية ومملوك لأحمد بن يوسف الكاتب	٦٥
المقامة البغدادية للحريري	٦٧
الأعشى في رسالة الغفران لأبي العلاء المعرِّي	٧٩
قصيدة «صحب النَّاس» للمتنبِّي	٨٣
قصيدة «أم الأسير» لأبي فراس الحمداني	٨٥
عبد الله بن سوَّار وإلحاح الذُّباب للجاحظ	٨٧
معاذة العنبريَّة للجاحظ	٩١
قصة الأرنب والأسد لابن المقفَّع	٩٣
احتكام الشعراء في عكاظ	٩٥
من لامية العرب_للشنفرى	٩٧

نصوص للقراءة والفهم والاستيعاب	١٠١
النص الأول: في مسألة القدر، لابن السيد البطليوسي	١٠٣
النص الثاني: في المعاد، لابن رشد	١٠٥
من كتاب مفرج الكروب	١٠٧
مقدمة ابن خلدون:	١١٧
محتويات الكتاب	١٢٧